

HABASHI

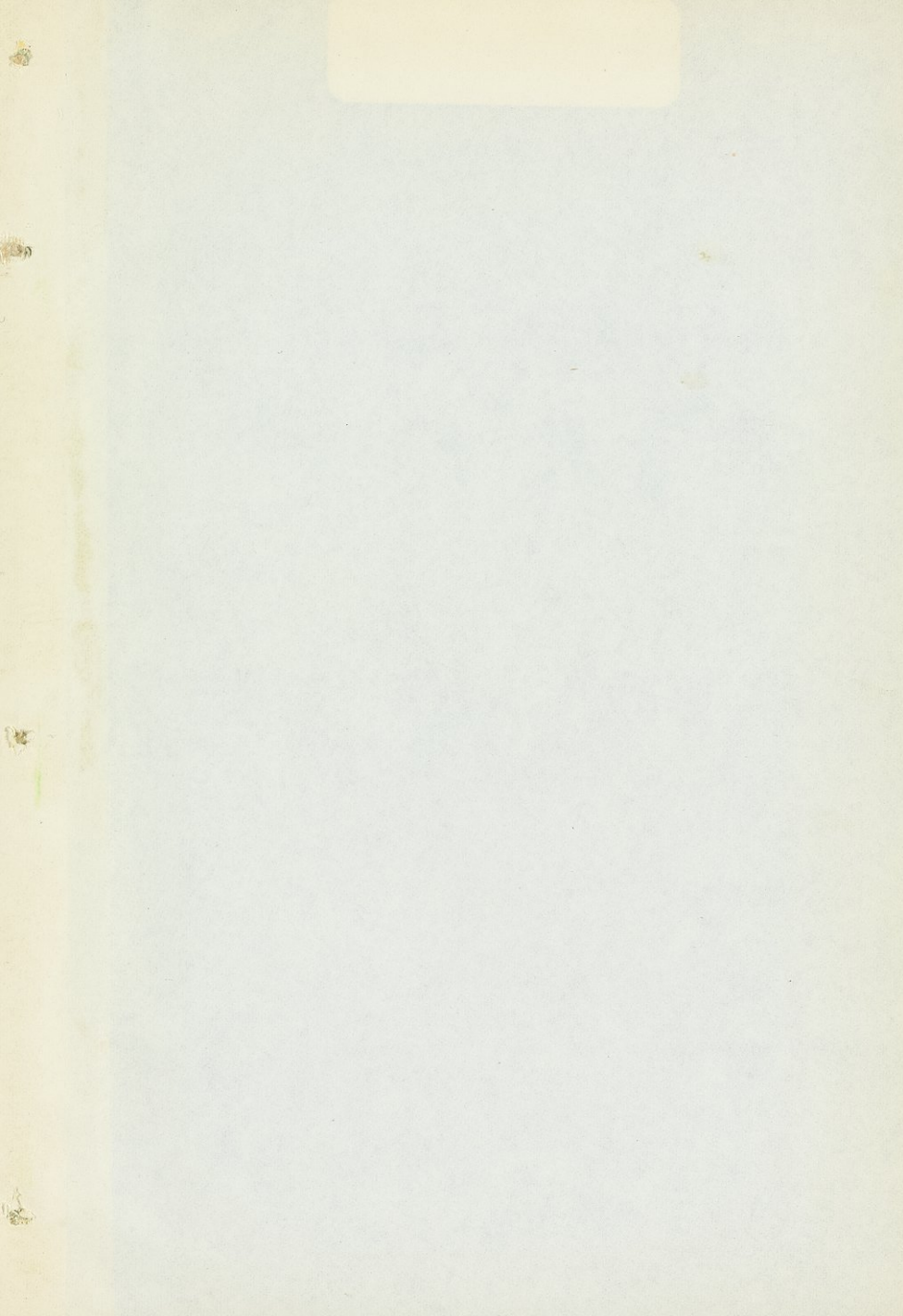
'UZAMA' MUDTAHADUN

[illegible]

Princeton University Library



32101 072535535



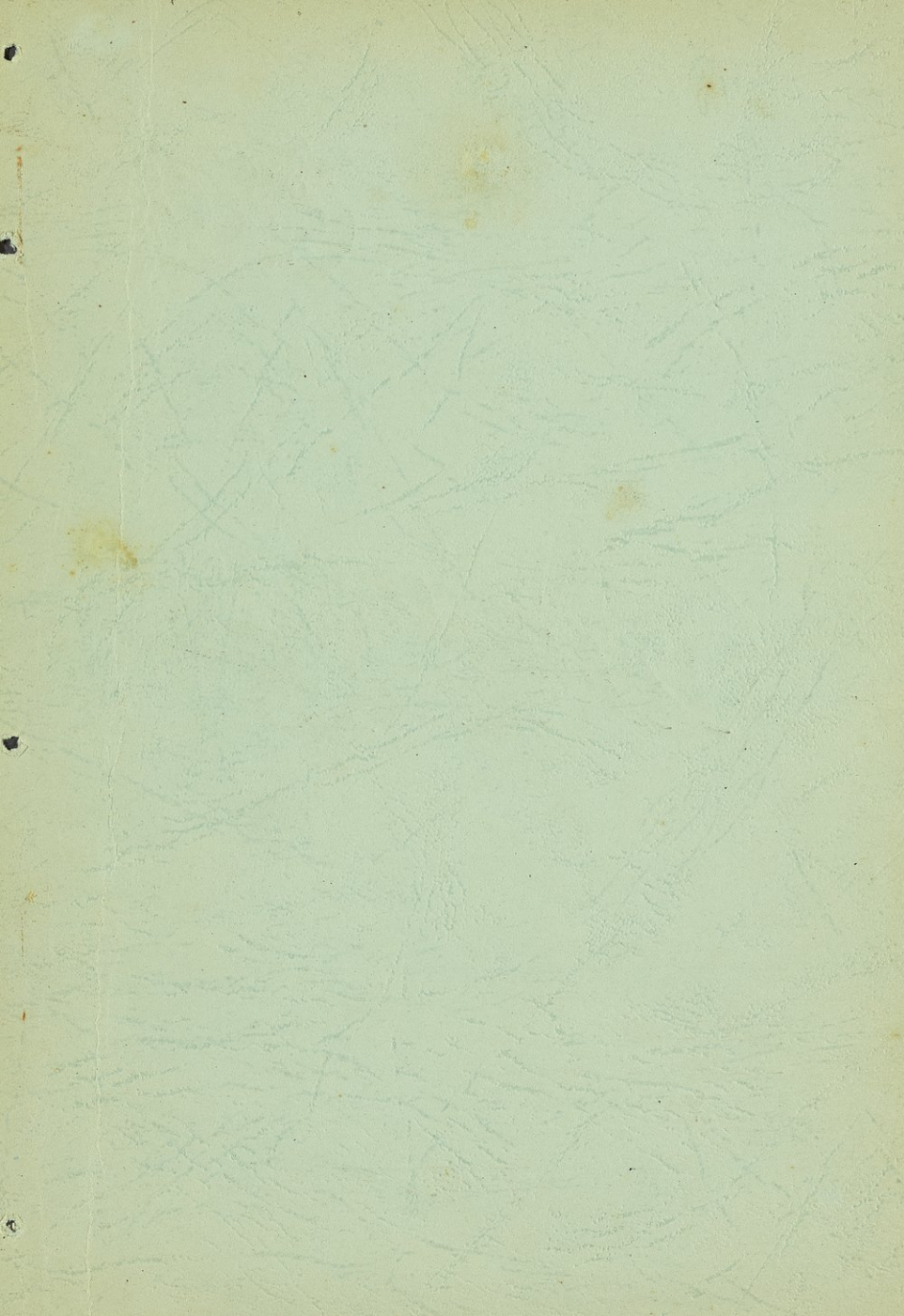
مصرى حبشى

عظما مضطهرو

الطبعة الاولى

١٩٣٩

مطبعة العدل باسكندرية



Habashī, Khayrī

مجلد اول

'Uzama', mudtahad ūn

عظما مضطهرو

الطبعة الاولى

١٩٣٩

مطبعة العدل باسكندرية

لقد عرفت الى الاستاذ الكبير والشيخ العزيم
بني بله ابو ساري

عليه نيل بلاءه اقبول
فيه كانه مثلكم في الجاهل الا وهو قد لا يعجب به

الفتيلة المرحمة

ولله عذري انما جهود شواضع خذوه للتاريخ والمصنف
وعلى اعداء با بعهه اقبول ما آتاه من اعماء وتقدير

المؤلف
حزقي محمد
الله

٧

الالهراء



الى الاخوة الذين قدموا ويقدمون أجسادهم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله بعبادتهم العقلية ..

الى الاخوة الذين تغيروا عن شكلهم بتجديد أذهانهم ليختبروا ما هي ارادة الله الصالحة المرضية الكاملة ..

الى كل من لا يرتى فوق ما ينبغي أن يرتى بل يرتى التعقل كما قسم الله لكل واحد مقداراً من الايمان ..

الى كل من يعمل - ابنوه فبالنسبة الى الايمان . أم خدمة ففى الخدمة . أم المعلم ففى التعليم . أم الواعظ ففى الوعظ . المعطى بسخاء .

المدير باجتهاد . الراحم بسرور والى الذى يحب بلا رياء .

الى هؤلاء المهتمين بعضهم لبعض اهتماماً واحداً غير مهتمين بالامور (الدنيوية) بل منقادين الى المتضعين .

الى الذين لم يكونوا حكماء عند أنفسهم . ولم يجازوا أحداً عن شر بشر الى هؤلاء الذين اذا جاع عدوهم أطعموه .. وان عطش أسقوه .

الى الأصدقاء ... ومبادئ الأصدقاء ... أصدقاء الكتاب .

الى من قوموني وقادوني بعد أن أنقذوني ... وبخنائهم وبرهم الهموني

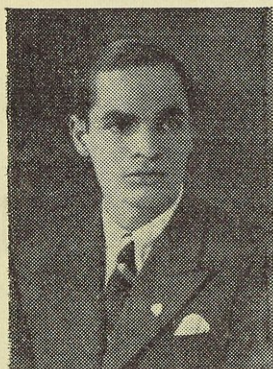
أخرج أول ثمار الالهام

فبرى حبشى

2269

395405

392



مقدمة

بقلم

المؤلف

لا يبدأ
أى كاتب في كتابه شئ . . . سيان كان هذا كتاباً أو
مقالاً ومهما صغر هذا الشئ ولو كان نبذة أو شذرة .
الا وكان هناك دافع يدفعه للكتابة . فكاتب يدفعه الاعزاز . . . يبنى من
الكتابة الحصول على المادة . وآخر يحمل للأدب كل الحب والاعزاز .
الاول يكتب ليشبع سغبه ، والثاني يكتب ليشبع ذهنه وعقله وروحه .
وجل الكتاب ان لم يكونوا كلهم لا يدفعهم الا أحد هذين الدافعين وربما
كلاهما ، ولكنى يدفعنى ما هو أمر وأنى فإنا كانت يدفعنى الاعزاز اذ
كنت فى فاقه وما كان يدفعنى حى للأدب لأنى لست بأديب ، بل قل
إنى على الألباء دخیل وغریب ولكن . . . كان هناك مضطهدون ،
ومفترى عليهم . مضطهدون فى حياتهم وفى تاريخهم . . . ومكنتنى ظروفى
ان أعرف أنهم مظلومون ، ففز على ان لا أنصفهم لا من أجلهم فقط
ولكن من أجل امهم التى اضطهدوا من أجلها فظالموا وغبنوا من أجلها .
لقد كنت فيما مضى شاباً يدفعنى شبابى للسقوط وترفعنى تربيتى الى

الاتعاش والسمو وظلمت أنخبط بين عوامل الانحلال والابلال ينزل بي
الوسط وترتفع بي حصانة الترية . حتي أتيح لشخص اكتم اسمه لشعوري
ان هذا يتفق مع رغبته . أتيح له ان يمد لي يد العون حتي تغلبت على
عوامل الشر في نفسي ، فضاع فتوري اذ تيقظت لنفسي .. وكان اهتمامي
اولا بعد صحوتي ان أحقق لنفسي المثل الأعلى الذي تبتغيه .. ولكن
اليد التي تولتني بالعباية تولتني بالتقويم والارشاد .. فعلمتني ان أحب
غيري كنفسي وان أحب أمي كنفسي وان أحب أمي كنفسي ويزيد ، وان
يكون حبي لها بلا رياء .

لقد عرفوني وعلموني ، اني ان كنت أتكلم بالسنة الناس والملائكة
وليس لي محبة ، فقد صرت نحاساً يطن أو صنجاً يرن . وان كانت لي
نبوه واعلم جميع الاسرار وكل علم ، وان كان لي كل الايمان حتي أنقل
الحيال ولكن ليس لي محبة فلست شيئاً . وان أطعمت كل أموالى وسلمت
جسدى حتي يحترق ولكن ليس لي محبة فلا أتفجع بشيء اذ المحبة تتأني
وتترفق ، والمحبة لا تحسد والمحبة لا تقبح ولا تحتد ولا تظن السوء ولا
تفرح بالاثم بل تفرح بالحق ، لان المحبة لا تسقط أبداً وأما العلم فيسيطل
وحتى النبوات فستنتهي - كل هذا علموني اياه - فدفعني حبي الذي لم يكن
به رياء ، حبي لأمتي التي أحبتها كنفسي ويزيد ، ان لا افرح بالاثم
بل افرح بالحق (لان المحبة لا تسقط ولكن العلم فيسيطل) - دفعني هذا
ان أكتب لأنصف وان أكتب لأفرح بالحق وليفرح غيري أيضاً

بالحق ، هؤلاء الذين يحبون الحق ويفرحون من أجله .

فأنا أكتب لاني أشعر أنني أكتب للحق ومن أجله .. وأنا أكتب لاني أشعر ان واجبي لأمتي يوجب على ان أنصف هؤلاء الرجال الذين زالت حياتهم ولكن لم تزل ذكراهم ولم تقن (على الاقل في قلبي) ولو عمل الكثيرون على افنائها لان كلمة الحق عند الهالكين جهالة وأما عند (محبي الحق) فهي قوة من عند الله . ولم يقدني عجزى ولا ضعفى لاني اعتمدت على الله وحده واذا كان « هو » معنا فمن علينا . ولانه يختار جهلاء العالم ليخزي الحكماء وضعفاء العالم ليخزي الاقوياء .

اتى عالم ان كتابي هذا سيعجب البعض ولكن الآخر سوف لا ينال اعجابه كتابي هذا ، وبالرغم من ذلك فاني راضى عن عملي هذا لاني وجدت ان من الواجب على ان لا أبالي في سبيل انصاف هؤلاء العظماء فقد كانوا لئالئاء وقد كانوا لنا حكام وقواد فانصافهم يكون بدافع الحب للأمة وللوطن اكثر مما هو لهؤلاء الاشخاص .

وانني لا اعتبره مفخرة ان لا يحوى كتابي الا الرؤوس الناضجة ، الرؤوس التي حيرت العالم من فرط الذكاء وفرط القوة . فانا أحمد الله اذ أعطاني ووفقني . لم يعطني علماً بقدر ما أعطاني من قوة عقيدة وعزيمة ولم يوفقي الى فخر بل ووفقني الى حقيقة اذ أنه مكتوب من يفتخر فليفتخر بالرب .

كما انه لا يسعنى وانا مغمور بفضل حضرات الاساتذة والبكوات :

الاستاذ	ملك بك حنا عبيد	ناظر المدارس المرقسية بالاسكندرية
الاستاذ	سلامه موسى	صاحب المجلة الجديدة
الاستاذ	توفيق حبيب	الصحافي العجوز
دكتور	امين روفائيل بقطر	
دكتور	صادق انطونيوس	

وغيرهم من حضرات الافاضل الذين مدوني بمعلوماتهم القيمة في
اخراج هذه التراجم مستوفية تماما فلهم منى أجزل الشكر أسطره على
صفحات الكتاب اذ عجزت عن ايقاتهم حقهم يلساني .
والله المقوى المعين



غاية الثقافة

ان نجعل الانسان انسانيا

بقلم الاستاذ الكبير سلامه موسى

« اتى أجدد سرفا كبيرا لكتابي ان أفتحه بهذه النبذة

القوية لرعييم الثقافة الاستاذ الكبير سلامه موسى وهي

أحدى مقالاتي التي تعبر عن خلقه القوي كما أنها تعبر عما

ينفوخ مع فكرة الكتاب »

هذه هي الحكمة التي قال بها الأديب الالماني توماس مان ونحن هنا نحاول أن نشرحها ونستخرج مغزاها أو مغازيها .

وقد يقال ان الانسانية هي صفة الانسان فليس هناك معنى لان نجعل الانسان انسانيا . ولكن هذا التحليل هو للظواهر فقط ، لا نتا نعرف جميعا ان كثيراً من الناس لا يزالون بعيدين عن الانسانية وفي لغتنا كلمة مروءة وهي المصدر من المرء ، ومع ذلك ليست المروءة من الفضائل العامة بين الناس ، بل الواقع أنها أندر الفضائل وأشقها في التحصيل .

وكذلك الانسانية من الفضائل الشاقة لا يحسن تحصيلها الا الرجل المثقف لان الثقافة تعرض له تاريخ الانسان وجهوده الماضية والحاضرة

وارتقاعه الى الشرف وانحطاطه الى الخسة . تعرض قسوته ورحمته وقبحه وجماله ، وعداته ومظالمه وذكاءه وتعرض له موكباً زاخراً بالمجاهدين والابطال من أجل الحرية والحق والشرف ، أولئك الذين اكتشفوا واخترعوا ليس فقط في العالم المادى بل في العالم المعنوى ، فى الآداب والفنون والعقائد والفلسفات .

والرجل المثقف يشعر أنه قد اندمج فى هذا الجهاد ان لم يكن بالعمل فبالروح والقلب . ويرى أن الثقافة قد غرست فى نفسه مزاجاً يجعله انسانياً يكره القسوة والاستبداد ويمالى الرفق والحرية ويعجب بالذكاء ويألم من الغباء ويطلب الصحة بألوانها صحة الجسم وصحة العقل وصحة الضمير . ويحب النظام ويكره الفوضى ويستهو به الجمال ، جمال المرأة وأيضاً جمال الزهرة وجمال الفكرة وجمال الفن .

والرجل المثقف لا يطبق القسوة وهــو يكره تعذيب الحيوان قبل الانسان لانه يعامل الحيوان بالانسانية التي غرستها فيه ثقافته ، ولذلك أيضاً هو لا يطبق التفكير في الحرب أو الايمان بالديكتاتورية أو التوسع الامبراطوري وعنده من انسانيته ما يحمله على الرفق والرحمة ليس في معاملة الناس بل في معاملة المجرمين وليس في النظر الى الاخوان والزملاء بل في النظر الى الخصوم والاعداء .

والرجل المثقف هو الذى يقيس الاشياء والناس بالقيم الانسانية ، فالشئ أو الشخص لا يكون خطيراً عظيماً لان له قيمة اقتصادية أو حرية أو سياسية وإنما لان له قيمة انسانية . والامة الفاضلة هي تلك التي

تهيء لنفسها نظاماً يجعل للقيم الانسانية المكانة الاولى والغاية المقصودة من نشاط الافراد وجهدهم بحيث يتجه كل شيء نحو توفير الذكاء والجمال والنظام والصحة .

ولست الثقافة مجموعة من المعارف قد حشدت في الذهن أو أودعت فيه كأنه خزانة من الجُماد بل الواقع ان مثل هذا الحشد أو الخزن غير ممكن لان الذهن جسم حي وهو يتفاعل مع المعارف التي يدرسها ، ثم هو بقدرته على النسيان يستطيع ان يأخذ ويرفض . وقد يبدأ الانسان في ميدان الثقافة مضطرباً يتختم ساعة ويقحط أخرى ولكنه عندما يتقدم يهتدى الى الطريق ويرى نفسه وهو ينمو في انسانيته بنمو ثقافته لانه وهو يتفاعل مع المعارف المختلفة انما يتفاعل مع الحقيقة مع أساليب ومواد التفكير الانسانية في مدى الآلاف الستة أو السبعة من السنين الماضية ، وهو بذلك يكتسب بصيرة للمستقبل هي بصيرة الحكمة الانسانية القائمة على تعرف الماضي ودرس الحاضر ، لانه قد وقف على مأساة الحياة البشرية وتورطها في الاخطاء الكثيرة كما وقف على انتصاراتها القليلة — لانه في الاكتشاف والاختراع . ففى نفسه مجهودها الشريف نحو الانسانية وفي نفسه آلامها الكثيرة الماضية . بل في نفسه هذا الخزي العميق للمظالم المتعددة التي وقعت ولا تزال تقع بالناس وهو يعد نفسه مسئولاً عنها لان الثقافة قد غرست فيه كبرياء تجعله يشعر كأنه وكيل عن الانسانية فهو يخزي من فضائحها الماضية ولكنه يجدوا على المطالبة بالاصلاح لكي يبرأ من هذا الخزي اذ هو خلقه في السلسلة الطويلة لمكافحة هذا الخزي .

عندما أقرأ ما كتبه «المصروولوجى برستد» فى فجر الضمير أشعر بهذه
 المأساة الانسانية فانه يصف هذا الكفاح البطيء الذى قام به المصرى
 الاول من أجل الحق والحرية والعدل والنظام لى يمحو عن نفسه
 عناصر الحيوانية فهناك قصة الفلاح الذى اعتدى عليه فى القيوم ونقاشه مع
 المدير . وهناك لفظة «مات» التى تدرجت فى المعانى الى ان أصبحت
 تعنى الشرف والمروءة وهناك الفضيلة التى تبدأ أولاً بحب الابوين ثم
 تنتهى الى حب البشر . بل هناك هذه الفكرة المؤلمة فكرة اليأس والامل
 معاً فكرة «ابن الانسان» الذى يأتى (من عالم النور الى عالم الظلام)
 لى ينقذ البشر من الاستبداد والمستبدين . وهناك ميزان المحاكمة تنصبه
 الآلهة فى العالم الآخر لى يقوم الاخلاق فى هذا العالم الحاضر .

فاذا انتقلنا من مصر الى أمم الشرق فاليونان فالرومان رأينا هذا
 التقدم البشرى يصطدم بعقبات من الجشع والانانية والقسوة والجهل
 والفوضى لان وسائل الثقافة ضعفت ففرض الضمير ونقص مقدار الانسانية
 فى الانسان ثم زاد النقصان حتى وصل الى درجة العدم فى القرون
 المظلمة حين عمت الجهالة جميع أفراد الامة ملوكا وسوقة فاذا كانت النهضة
 الثقافية فى اوربا تبعثها خيرى عربية من ناحية الاندلس هب الضمير
 الانسانى وأخذت الثقافة بحظ جديد يغرس فى النفوس نزعات جريئة الى
 الجمال والحق والشرف والنظم .

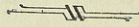
ثم نرى بعد ذلك ثورات متوالية هي ثمار الثقافة الجديدة التي جددت النفوس وأرادت الانسانية بالانسان . فالناس يكتشفون ويخترعون . يكتشفون اميركا ويخترعون « حقوق الانسان » للثورة الفرنسية ، ويكتشفون القطار ويخترعون الاشتراكية ، ويكتشفون قواعد الطبيعيات أو قوانينها ويخترعون عصبة الامم .

ولكن ماذا أقول هل عصبة الامم قائمة أم نائمة ؟

لقد قال رجل مثقف آخر هو (ولز الكاتب الانجليزى) اننا يجب ان نصل الى تحقيق خيال الحكومة العالمية ان نجهز الناس فى جميع الامم بالجهاز الذهنى بأن تؤلف موسوعة تحشد فيها جميع المعارف وترجم الى جميع اللغات حتى ينشأ الناس وهم على مقدار سواء من الثقافة تغرس فيهم نزعات متوافقة تجعلهم يؤمنون بقدرة الانسان على ان يكون انسانياً قبل ان يكون مصرياً أو انجليزياً أو صينياً قد سلخ عن نفسه ذلك الكساء الحيوانى كما يسلمخ الثعبان جلده . وعندئذ يتخلص من تلك النعرات التى يصرخ بها فضاء هذه الكرة كأنها نعيم الغربان على الحضارة القائمة .



مصر المضطهدة



إذا كان كتابي هذا لم يحو إلا تراجم العظماء المضطهدين والعظماء
المفترى عليهم ، الذين لم يضطهدوا إلا من أجل خدمات أدوها
لأممتهم ، بل واستماتهم في سبيل الأمانة التي يحملونها في اعناقهم لهذا
الوطن ، وفي سبيل الواجب غير مبالين بأى اضطهاد أو ظلم .

فالأحرى بنا أن نستعرض شيئاً من تاريخ تلك الأمة التي أحبت
هؤلاء العظماء فاضطهدوا من أجلها . ولا سيما أن هذه الأمة نفسها
مضطهدة مظلومة ومفترى عليها . فالاضطهاد والظلم الواقع عليها كان في
شخص أبنائها ، وحملة أبنائها ، فهم لم يحملوه إلا من أجلها كما أن الافتراء
وقع على تاريخها . فان كنا عملنا على انصافهم فالأولى انصافها ، فانصافهم
انصافاً لها وانصافها انصافاً لهم .

فهذا الباب ليدل دلالة واضحة على بطلان الصورة الزائفة التي يضعها
مؤلفو الغرب ومؤرخو التاريخ عن مصر . فالواقع أن تاريخ مصر لم
يكتب حتى الآن من مؤرخ منصف يبغي الحقيقة فيما يكتب أو يبغي العلم
الصحيح ، حتى ما يتعلق بالعصر الفرعوني لولا الشواهد والأدلة المدونة
على الآثار الباقية لترغمهم على الاعتراف ببعض مما ينكروه . أما العصور التي
تلت ذلك فقد شوه تاريخها السياسة الأجنبي لما ربههم الخاصة منذ القدم :

وكان أكبر المشوهين هم العرب الذين خلفوا الرومان في حكم مصر وتلاههم الاتراك فالفرنسيين فالانجليز ولا سيما الاخيرين الذين كانوا يستدلون بحكم مصر من الفرس ثم اليونان ثم الرومان ثم العرب ثم الترك ثم الانجليز .
دليلا على ان هذا الشعب لا يعرف لنفسه كرامة يضحي في سبيلها ولا يقدر للعزة القومية معنى يثور من أجلها .

ومع الاسف الشديد ، بل ومليء قلبي أسف أصرح ان هذا هو التاريخ الرسمي الذى يدرس لاطفالنا بعد ان درس لنا في مدارسنا المصرية .
وانني لا تهز الفرصة كي أنادى هؤلاء الذين يحملون لوطنهم ولو ذرة من الاخلاص الى متى يكونون مخالب ققط والى متى يرضخون للسياسة الاستعمارية بقلقين اخوتنا واطفالنا تاريخاً ممسوخاً مشوهاً .
ليتمل القارىء العزيز في الاتهامات التي صبوها على رأس مصر وليروا حقيقتها من الصواب .

* * *

فرأس الاكاذيب على مصر وعلى الاخلاق المصرية أنها لم تكن في يوم من الايام بالقوة التي تحكم فيها نفسها أو تبالي غارة الاجنبي عليها وساعد على لصق هذه التهمة الاسباب الآتية :

(١) ان مصر ككل الامم الاخرى كان أفرادها خليط من سكانها والنازحين اليها من الامم المجاورة أو الامم الغازية أو أسرى الامم المهزومة لذا فقد كان هذا الخليط لا يبالي ان كان محكوماً من أبناء البلاد أو من غير أبناءها لوقوع الظلم عليه في الحالتين .

(٢) ان تاريخ مصر كان أنصع من غيرها حتى استلقت أنظار غيرها من الامم فلما ان اعترتها نكسة الضعف ظهر رد الفعل في الاذهان المشغولة بذكرها فتشوه تاريخها .

(٣) ان أبناء مصر لم يحفلوا بتصحيح ما يقال عن وطنهم لجهلهم بمخطر الدعاية التاريخية وأهميته ومبلغ الحاجة اليه .

واذا كنا قد فحصنا هذه الثلاثة وغيرها كثير فلنرى كيف ان هذه التهم لم يكونوا على حق من نشروها ولصقوها بمصر .

(١) ان مصر لم تكن تصبر على الحاكم الا الى امد محدود وسكوتها على الظلم كان له زمن محدود يتوقف هذا على مقدار الظلم الذي يرتكبه ولم تكن هناك قوة في الوجود تحول دون ثورة الوطنيين الاصيلين بالرغم من الاجانب الممتزجين بهم . وعندما رأى الوطنيين افضال حكم الحق حكم المصلحة للحكومين تمسكوا به وبطلت فكره الغالب بقوة السلاح أو المال ومن هنا نشأت الفكرة الوطنية بمعناها الحديث .

(٢) انه ما من دولة واحدة في العالم حتى أنجلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا ، لم تخلص ولم يخلص تاريخها من حكم أجنبي لها دخل اليها دخول الظافر القاهر أو دخول الصديق المتودد .

(٣) ان حكم الاجانب لمصر كان له ميزة ترفع من شأن مصر بين هذه الامم التي ترميها بدائها وهو ما من حاكم أجنبي حكم مصر الا واتحل دينها واتخذ عاداتها ومراسمها ويحفظ ماله في عاصمتها وفي أرضها للعمل على مرضاتها وحذراً من جموحها وانقلابها . ولنا من « دارا » مثلاً بارزاً

فانه لما لاحظ ان المصريين الوطنيين يأبون حكم مندوبه « ارياند » حضر الى مصر وعمل على مرضاتهم حتى أنه قتل « ارياند » هذا لغير سببه التي كادت ان تلهب الثورة وتستفز الشعور ، بل بالغ في تملق الشعب حتى بنى لهم معبداً « لآمون » واشترك في موكب الحزن على العجل المقدس « هابي » واكتب بما يقرب من ٢٥ ألفاً من الجنبات لمن يعثر على عجل آخر حسب الشروط التي دونها الكهنة المصريون ولكن كل هذا لم يكن مبرراً لطلبه اقامة تمثال له بجوار تمثال (رمسيس الثاني) في معبد « قناح » بل رفضوا رفضاً باتاً مقاومين اياه وهو الحاكم المتسيطر فأذعن الكبراء رعاياه المغلوبين منه .

كما انه لا يجوز لنا اعتبار مصر حكومة من دول أجنبية لان حكامها ليسوا من دماء مصرية صميعة الا اذا اعتبرنا ان الامبرطورية البريطانية في كل عظمتها الحاضرة حكومة من دولة أخرى لان جلاله امبراطورها الحالي ليس من دم انجليزي أصيل . وكان لنا أن نعتبر أن فرنسا أيام نابليون كانت حكومة من كورسيكا الإيطالية كما أننا لا ننسى أن أكثر ملوك أوروبا الآن ليسوا من دماء ممالكهم الصميعة فليس هذا دليلاً على ان كل ممالك أوروبا غير مستقلة الآن . وليست كل هذه الممالك الآن أكثر حرية واستقلالاً وعظمة من مصر في أكثر العصور التي تعاقبت عليها .

بل وما يزيد اثباتاً للعزة القومية ان اليونانيين كانوا ينقمون على المصريين الترفع والشمم ونظرهم للاغريق جميعاً نظرة من هم في الحضيض الادنى من مراتب الشعوب .

ومن هنا أيضاً الصقوا بالمصرى تهمة كرهه للجندية وفي هذا الامر تأمل قليلا في قول الاستاذ العقاد في (الطبيعة المصرية في اوهام الناس) (١) « ان اليونانيين كانوا ينقمون على المصريين ويشعرون بنفورهم لانهم أنعموا بالحكام الغاصيين عليهم ودخلوا زرافات زرافات في الجيوش المرتزقة التي كان أولئك الفراغة يستعينون بها على حراسة عروشهم واخضاع رعاياهم . وكان اليونانيين يزعمون بطبيعة الحال ان الحكام يتخذون الجيوش المرتزقة من الاجانب ومن اليونان خاصة لان أبناء البلاد لا يصلحون للحرب ولا يصبرون على مضانك الجندية . أما الحقيقة فهي ان الحكام الغاصيين علموا بغض الوطنيين لهم وتربصا بهم وتحفزها للثورة عليهم فخافوا ان يسلموا زمام القوة العسكرية الى تلك الرعية واصطنعوا الجند الاجانب ليتقوا بهم خطر الثورة وبوادر الفتنة ، وبلغ الخوف بهم أشده في عصر الغزوة الفارسية فأكثروا من جند اليونان وأقلوا من التعويل على جند البلاد . على ان استخدام المرتزقة خطة لم تنفرد بها مصر لانهم كانوا يستخدمون في جيوش فارس وساموس في هذه الفترة بعينها . فليس من الانصاف ان يكون وجودهم في الجيش المصرى دليلا على نقص كفاءة الجندى المصرى لان حديث المؤرخين اليونانيين انما هو حديث موتور ودفاع دخیل ممقوت . علاوة على ان التاريخ ملي بما يدل على عظمة الجندى المصرى وتقووة على كل جنود العالم قاطبة » (انتهى حديث العقاد) .

ولنقدم مثلاً مما جاء بتاريخ مصر أولاً ان « كورش » مؤسس دولة الفرس وفتح الامصار ومدوخ الدول والشعوب تهيب ان يقدم على غزو مصر فتركها وشأنها (١) بالرغم من تحالفها مع أعدائه متحملاً صفعها له بتأليبها البابليين والليديين والاسبيرطيين فخارب بابل واسبارطه ولم يجسر على ان يحارب مصر .

وها مثلاً آخر ، فان قمبيز مع تهجمه وفتوته لم يجسر على مقابلة الجنود المصريين وجهاً لوجه فاعتمد على خيانة « فانيس » اليونانى الذي رشا البدو القادمين في صحراء سيناء . ثم لم يكفه هذا حتى الب الاسيويين وجمع منهم ستة أضعاف الجنود المصرية ثم أغرى الطاغية الساموسى « بولكرات » ليميل اليه بأسطوله وبعده الحرية الحديثة .

بل اتنا اذا استشدنا بأجانب لوجدناهم أكثر انصافاً . فقد كتب « مستر جريفز » مندوب صحيفة التيمس في استعراضه لحالة الجيش المصري وشجاعة جنوده اذ يقول « لاريب ان المغامرين الترك والاوربيين احتكروا القيادة ولكن الجزء الاكبر من الجيش وهو الجند والضباط المصريين هم الذين هزموا الجيش الانجليزى المنظم سنة ١٨٠٧ ثم فتحوا السودان وساروا شرقاً وغرباً محرزين النصر فغلبوا صحراء العرب وكسروا شوكة الوهابيين وكادوا يقضون على السلطنة العثمانية لولا الدول الاوربية التي تدخلت » . بل ويشهد أحد الضباط اليابانيين الذين زاروا مصر بعد الحرب العظمى بأن المصريين أمة مقاتلين لو أحسنت قيادتهم

(١) كتاب تاريخ الحضارة المصرية لمسيو جستاف جيكيه .

لدوخوا العالم . وهذه شهادة رجل حربى خير من أمة حرية كبيرة (١) .

* * *

ان فى كل هذه الامثلة وغيرها ما ينفى ظلم المؤرخين لمصر لاصقين بها كل تهمة . لافتين نظر القارىء الكريم الى ان هذه الحوادث نقلت الينا عن اليونانيين أنفسهم وليس من المعقول ان يلصقوا بنا فضائل ، بل المعقول ان يمسخوا ويزيلوا ان لم يعدلوا ويمحووا .

ومما زاد تناثر هذه الاقوال وجود دولة الاسرائيليين الى جانب مصر فى الشرق . وأمر الاسرائيليين فى مصر معروف معلوم فقد اضهدوا وعذبوا وسخروا تسخير العبيد حتى أتيح لهم ان يخرجوا بقيادة موسى وهارون . خرجوا كارهين متمنين لمصر الهزيمة حاقدين عليها . متلقين كل كل خبر سىء عنها بالبشر والترحاب . فرحين لىكل ما يبشر بزوال مجدها وأقول نجمها . وزادهم بغضاً على بغض أنهم استنجدوا بمصر على البابلين فلم تنجدهم لانه لم يكن هناك دافع لتحارب من أجله متذكرة ان الاسرائيليين خرجوا على طاعتها . فركبتهم لبنو خذ نصر فسبى أهلها وخرب مملكتها فراحوا يتمنون لها مثل ما أصابهم بل وراحوا هم ينقلون عنها كل المساوىء لاصقين بها كل التهم .

بل ومما زاد هذه المفتريات رسوخاً خلط عامة المسلمين فى تاريخ الفراعنة أو ظنهم ان كل فرعون هو فرعون موسى الموسوم بالكفر

(١) كتاب لا بد للبابان من حرب انجلترا المؤلفه الضابط اليابانى

توتا اشيمارو .

والظغيان في سور القرآن فأصبح اسم كل فرعون اسماً مكروهاً ممقوتاً
مرادفاً لاسم الفرعون المنبوذ . وأصبحت سلالة هذا الجنس (المصريين)
في وهمهم غير مستغرب فيهم قدح قاذح .

وجاء في كتاب العقاد عن « سعد زغلول » ما يأتي :

« ثم جاءت العصور الاخيرة والمصريون لا يسمعون عن أنفسهم الا
التشهير بهم وسوء القالة عليهم وتفسير التاريخ على الوجه الذي يريده لهم
أعداؤهم والطامعون فيهم . فالأوربيين نظروا الى المشرق نظر المستعمر
الطامع الى الغنيمة المطموح فيها . فوصفوها في ماضيها وحاضرها بالصفات
التي يحبونها ويتمنون دوامها ، وهم لا يحبونها مستقلة ولا أهلاً للاستقلال
ولا يحبون لا أنفسهم ان يكونوا ظالمين مغالين يقتلون روح الحرية ويحكمون
بالذل على أناس يستحقون العزة والكرامة فليس مما يشبع مطامعهم أو
يريح ضمائرهم ان يتصف الشرق بصفات الحرية والسيادة وانما يشبع
مطامعهم ويريح ضمائرهم ان يتخيلوا الشرق مفطوراً على الخضوع مطبوعاً
على الاستسلام » (انتهى ما كتبه العقاد) .

* * *

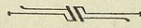
على انه ما يعني قوله هنا ان مصر لم تجد منصفاً لتاريخها في القديم ولا
في الحاضر لانها لم تجد المؤرخ الذي يضع تاريخها على طريقة علمية صحيحة
وان كانت هذه المقدمة قد أثبتت خطأ الصورة المشوهة وبطلان الزيف
الذي يضعه مؤرخو الغرب لتاريخ مصر فلعل ذلك يكون حافزاً لكتابنا
على ان يراجعوا ضمائرهم أمام الله وأمام أوطانهم ويهتمون بوضع كتب

تقذ عقول أطفالنا من هذا الزيف الذي رأينا منا من يصدقه ولا يتخرج من تلقينه على هذه الصورة لصغار الالباء . بل وجدنا منا أيضاً من زاد به الاجرام حتى شوه أكثر مما شوهوا هم . أو الف خصيصة ودس في مؤلفاته ما يؤكد هذا التشويه ، فكان منا وهو علينا وياليتيه ما كان منا .

وسرى في الصفحات التالية تراجم أكثر الزعماء ظلاماً أو اضطهاداً وافتراء عليهم . كيف انهم كانوا أبرياء ولكن ما أصابهم كان مما أصاب وطنهم وما أصاب وطنهم لحق بهم . فها قد رأينا كيف كان هذا الشعب أياً شجاعاً ذكياً فاتهم بالجن والخنوع والغباء ، وسرى كيف خرج من صلب هذا الشعب رجالا يعدون أمثلة كاملة بالرغم من الارادة الاجنبية التي شئت فاتهم ثم سخرت بعض العاقين من الابناء على الآباء . ولعللى أوفق في عرض الصورة الرائعة التي تختمر في ذهني والله يعطى التوفيق من يشاء .



مولد مصر الحديثة



ان مصر الحديثة كأمة لم تولد الا بعد الحرب العظمى . ولا كنهها كدولة تحكم نفسها بنفسها كانت ولادتها أثر خروج نابليون من مصر . فما لا شك فيه ان ظلام حكم المماليك في مصر كان يعمي أبصار المصريين . حتى أتيح للحملة الفرنسية ان يغريها سكون الوادي فتقتحمه . وكان أثر هذا الاقتحام تحطيم سلاسل الظلم والجهل وعند رجوع الحملة الى فرنسا لم نترك لنا سلسلة من الحصون والقلاع والمدافع بل كانت آثار الحملة ديوان المشايخ العشرة ومطابع ونظافة وتنظيم ، بل كان الاثر النفسي أهم وأعظم فقيام الثورة ضد الاجانب (الفرنسيين) حرك الافكار ونبه الازهان بعد ان ذاقوا لذة استشارتهم في الحكم بواسطة مشايخهم العشرة . وكان لحركة الشدة التي قابل بها الفرنسيين ثورة الاهالى . كبت وضغط لهذه النفوس التي كان يطاح منها عشرات الرؤوس يومياً في سبيل اخاد الفتنة فكان لهذا الاضطهاد وقع يخالف ما قصد به المضطهدين فكانت ثورة يتلوها ثورة فتنبهت الازهان الى شيء اسمه كرامة مفقودة واستقلال ضائع . ومن هذا الوقت ابتداء زعماء الشعب أو زعماء الوطنيين كل منهم لا تظهر أخلاقه لمواطنيه وجبه لشعبه ، الا بمقدار مطالبته باستقلال مصر وتسكبه به ، ففي الحق لم تكن النزعة الاستقلالية منشأها

في مصر بعد الحرب . انما كانت بعد الحملة الفرنسية اذ ذاقوا لذة الحرية ولذة المساواة ولذة الابتعاد عن الظلم والاضطهاد والتوحش ، فرغبوا في المزيد أكثر وأكثر ، وكان جل اعتمادهم في ذلك على السنة زعمائهم موكلين اياهم للمطالبة بحقوقهم . ومن هنا كان في كل فترة يظهر زعيم . فكان منهم الجبرال يعقوب ثم جرجس الجوهري وابراهيم أخيه وكان منهم السيد عمر مكرم وبعد انتهاء الثورة العراقية تزعم مصر بطرس باشا غالى حتى الحرب .



الطوائف المضطربة

الكتابة عن الجبرال يعقوب أذكر ان الاقباط في ذلك العهد كانوا في حالة يرثي لها نظراً للاضطهاد العظيم الذي لحق

قبل

بهم من جراء محافظتهم على مذهبهم القديم العهد الذى كان سبباً فى شقائهم واضطهادهم ليس فقط من أصحاب الاديان الاخرى بل ومن النصارى الذين خالفوهم . ولكن بالطبع كانت الشقاكات الداخلية أقل وأضعف من ان تؤثر نفس التأثير الذى تنتجه نفس الاضطهادات الخارجية ، فعلى سبيل المثال أذكر عدة أمثلة ذكرها الجبرتي نفسه وهو من كبار العلماء المسلمين ، ولست أدري ان كان ذكرها فى كتابه بنوع الفخر فيكون ذا نفسية وضيعة أم ذكرها نصراً للحقيقة وتسجيلاً للواقع . وعلى كلا الامرين فلا يجسر شخص ما ان يفندها لان لا مصلحة له فى هذا السبيل .

قصد جمع كبير من أقباط مصر الى الحج سنة ١٧٥٣ . ولما أرادوا السفر فى موكب حافل تصدى لهم جماعة المشايخ بحجة أنه لا يجوز مساواة أقباطها بمسلميها فيخرجون بموكب مثلهم . واذن للعامّة بالخروج على الموكب فذهبوا متاعه وسرقوا ذهبه وفضته وأمواله .

ولم يكتفوا بهب كل ما مع الحجاج بل زادت ثورتهم حتى ارتدوا الى المنازل والكنائس فهبوها وهدموها .

وبعد موت على بك الكبير نال الاقباط أذى بليغ اذ كان اسمعيل بك الصغير يكرههم كثيراً وتصدى لأذيتهم أيام ان كان (كتخدانيا) لمحمد بك أبو الذهب بل ومنعهم من ركوب الحمير ولبس أي ملابس فاخرة . ومنع عنهم شراء الجوارى والعبيد أو استخدامهم بل وزاد به التعنت حتى أصدر بعض الاوامر التى تقيد من حرية السيدات بفرض ملابس خاصة ومواعيد للخروج ، وتنبيهاً للاذهان نذكر ان هذه الاوامر كانت خاصة

بطائفة واحدة .

وفي سنة ١٧٨٥ أمر مراد بك بهدم كنائس رشيد وصب عليهم كثيراً من نقمته وغضبه . ولكن في هذا العهد لم تكن طائفة الاقباط هي الوحيدة المضطهدة بل شاركتها الدولة الاسرائيلية حتى بلغ الاضطهاد الى درجة ان كان من المحرم على الافراد التسمية بأسماء الانبياء كابراهيم وموسى وعيسى ويوسف واسحق ومن كان متسمى من قبل أرغم على تغيير اسمه .

وفي حكم حسين باشا قبطان هجم الجنود بأمره على بيوت الاقباط وباعوا المتاع والاثاث والملابس حتى السيدات القبطيات جميعهن عرضن في سوق الجواني للبيع .

وكان كل والى يدركه الاعواز يتذكر ان هناك أقباطاً يجب ان يعتصرهم حتى الثمالة فيفرض عليهم ضرائب ويلزمهم بدفع فديات وغرامات . واني أذكر هذا وكلى أسف ان أردد قول الجبرتي عن خطبة القاها نصوح باشا قائد الجيش العثماني بعد خروج الفرنسيين من القاهرة قال فيها « اقتلوا الاقباط واجاهدوا فيهم » فلما أدرك كليبر هذا الامر ارتد ثانيا الى القاهرة ودخلها لينقذ أقباطها .

ويكفي تصور الحالة مما ذكرها الجبرتي نفسه اذ قال : وحضر أيضاً رجل مغربي والنف عليه طائفة من المغاربة وفعل أموراً تذكر عليه لان غالب ما وقع من النهب وقتل من لا يجوز قتله يكون صدوره عنه فكان يتجسس على البيوت التي فيها النصارى ويكبس عليهم ومعه جمع من

العوام والعسكر ويقتلون من يجذونه منهم وينهبون الدار ويستحبون النساء ويسلبون ما عليهم من الحلى والثياب ومنهم من قطع رأس البنية الصغيرة طمعاً في ما على رأسها من الذهب . وقتلوا أيضاً الاقباط الذين في بولاق ونهبوا بيوتهم وعلى كل حال لم ينج من أيديهم من النصاري في هذه الفتنة سوى الذين تسلقوا الاسوار وفروا الى معسكر الجبال كليلر والذين اقتدوا انفسهم بالمال والذين حماهم الجبال يعقوب في قلعة .

واني اذا ذكر هذا لا يسعني الا ان انبه القراء الى ضرر التحريض على هذه الاعمال المنكرة فقد كان الولاة والزعماء المسلمين يحرضون ضد الاقباط ولاكن الاذي لم يكن لينال الاقباط وحدهم بل كثيراً ما كان العامة في حماستهم وثورتهم وجنونهم ينهبون بيوت المسلمين انفسهم ومحلاتهم وكثيراً ما تعدوا على كرامة علمائهم ومشائخهم وأهانوهم اهانة ينجل الكتّاب من ذكرها ووصفها ، وليس هذا بالغريب فقد حدث له مثل أيام مذبح الاسكندرية سنة ١٨٨٢ . ولو لم يكن حاكم القاهرة متيقظاً لوقع اضعاف اضعافه في القاهرة فقد كان الرعاع حتى ليلة دخول الانجليز للعاصمة يقتسمون جهازاً منازل مخدميهم او المشهورين .

وقد حدث أثناء الثورة في طنطا ان انبرى الرعاع للفتك بالكثيرين فسارع اليهم المنشاوى باشا وجمع بعضهم في منزله وطوقه بخدمة وحماهم فكان عدد القتلى في الشوارع حسب الاحصاء الرسمى من اطفال ونساء ورجال ١٢٢ والله أعلم كم كان من المقدّر ان يكون العدد لولا شهامة المنشاوى .

وفي تراجم الجبرال يعقوب والسيد عمر مكرم والجوهريان جرجس
 وابراهيم القليل من هذه الحوادث التي خفت ان أعددها وأذكرها
 كلها حتى لا أتهم بالتفريق بينما انا اذكرها على سبيل سرد الحقائق
 وتبيان الاضرار التي تنتج من مثل هذا التهور والاجرام الذي لا زال
 البعض يعمد اليه ..





الجنرال یعقوب

الجنرال يعقوب

نبغ من المصريين في القرن الثامن عشر رجلاً قبلياً من سلالة الشعب المصرى القديم استحق ان يخص له التاريخ صفحة جيدة من صفحاته وهو يعقوب حنا وقد لقب فيما بعد المعلم فصار المعلم يعقوب ثم الجنرال يعقوب .

وبعد شهرة المعلم يعقوب في عهد احتلال الفرنسيين للديار المصرية (١٧٩٨ — ١٨٠١) فتحدث عنه مؤرخو الفرنسيين وورد ذكره في المكاتبات الرسمية والوثائق المحفوظة في وزارتي الحربية والخارجية بباريس وفي هاتين الوزارتين كل ما يتعلق بالمعارك الحربية واسماء القواد والضباط والجنود ، فهما مرجع صحيح الرواية .

وبما يجعل سيرة المعلم يعقوب جديرة بالدرس أنه أول قبلي ألف جيشاً قبلياً بقيادته وكان رفيقاً للقائد « ديسيه » أحد قواد حملة نابليون وشريكاً له في حملة الصعيد ، وهو كذلك أول رجل من غير الفرنسيين منحه حكومة الجمهورية الفرنسية رتبة قائد .

يقول المؤلف نقولاً الترك وكان شاهد عيان في تلك الحملة « كان عند الجنرال ريسيه من الاقباط المشهورين يعقوب الصعيدى . وهو رجل قوى الشكيمة مشهور بالفروسية والهمة العالية وهو الذى كان في خدمة سليمان

بك فلما آنس فيه الشجاعة وظهرت له قـوته واستعداده قدمه الى نابليون وأطرى اخلاصه فقربه هذا اليه وأعجب ببسالته مما دعى يعقوب الى تأليف فيلقه .

وأهم من هذا كله انه أول مصرى وضع مشروعا لاستقلال مصر عن الدولة العلية وعن حكم المماليك اذ أرادها بلاداً حرة خالصة لاهلها ولاكن المنية لم تمهله حتى ينال الموافقة من الدول على هذا الاستقلال . وقد عثر في السنوات الاخيرة في محفوظات وزارة الخارجية البريطانية على الوثائق التى تضمنت مشروع الجبرال فنشرها المسيو جورج دوان فى مقدمة كتابه « مصر المستقلة » وقد طبعت باللغة الفرنسية سنة ١٩٢٤ ثم نشرها الاستاذان توفيق اسكاروس وميخائيل بشاره داود فى مجلة مصر الحديثة . وفى سنة ١٩٣٢ نقلها الاستاذ شفيق غربال فى مؤلفه باللغة العربية المسمى « الجبرال يعقوب والفارس لاسكاريس » .

وقد نوهوا جميعاً بفضل الجبرال وأذاعوا للملأ عمله التاريخى ولهذا رأت لجنة التاريخ القبطى ان تجمع ما تفرق مما كتب عن الجبرال يعقوب وتستخلص زبدته فقدمته الى القراء مثلاً أعلى لحب الوطن والتفكير فى خلاصه وتحريره بحجة ذيه أبناء الوطن ومجدون فيه باعثاً على الفخار والشعور بالكرامة الوطنية . فان تاريخ الامم التى فازت باستقلالها ليس فى الواقع سوى تاريخ فئة من أبنائها الصميمين البارزين كانوا أمثلة فى الشجاعة والاخلاص لبلادهم وهم الذين جاهدوا فى سبيلها وبنوا صرح مجدها ونسجوا ثوب عزها .

الرأي الذي أجمع عليه المؤرخون هو ان يعقوب ولد في مدينة ملوى من اعمال مديرية اسيوط في سنة ١٧٤٥ ميلادية من أبوين قبطيين وهما يوحنا ومريم غزال ابنة توفيق غزال .

وهذا الرأي يعززه ان اخوته وأخواته ولدوا في ملوى وفيها ربي هو وتعلم العلوم الاولية وفيها تزوج امرأته الاولى واقتنى منزلاً . ولما اجتازها الجيش الفرنسي وهو يطارد مراد بك أراد يعقوب ان يعرج عليها لكي يحتفل فيها باكرام القائد ديسيه الا ان هذا كان همه تعقب مراد بك فلم يشأ التواني في المسير .

لم يكن بمصر في ذلك العصر من معاهد التعلم سوى الكتاتيب القبطية يتلقى فيها أبناء القبط القراءة والكتابة وشيئاً من الحساب الابتدائي ويستظهرون المزامير والالخان الكنسية . فأدخل يعقوب كتاب بلده حيث قضى سنين الاولى كما يقضيها أترابه دون ان يمتاز عليهم أو على سائر اخوته بشيء ما .

ولما كبر يعقوب لم يكتف بما تلقته من المعارف الاولية في الكتاب بل واصل الاجتهاد في الدرس لذاته فأحرز قسطاً وافراً من اللغة العربية وأجاد كتابة الخط ورعى الاصول الحسابية . وكان القبط مشهورين باتقانها . والذي دفعه الى ذلك ما طبع عليه من جد وطموح للارتقاء وبقوة عزيمته استطاع ان يحرز جانباً من الثقافة ازدادت به معلوماته فساعدته ذلك على بلوغ المرتبة الرفيعة التي بلغها فيما بعد .

وَأتم يعقوب العقد الثاني من عمره فألحقه والده كاتباً عند قريب له من المشتغلين بجباية أموال أحد المماليك الذين كانوا يتقاسمون حكم البلاد في ذلك العصر . وهنا بدأت مواهبه تظهر واكتسب كثيراً من المعلومات الادارية والحسابية ولما طرد على بك الكبير محمد باشا الحاكم العثماني من القاهرة وولى حكم البلاد وقبض على زمام السلطة العليا فيها قرب اليه المماليك الآخريين بالانعام عليهم برتبة البكوية . واتفق في أثناء ذلك أن التحق يعقوب بخدمة أحد هؤلاء وهو سليمان بك أغا الانكشارية وكان واسع الثروة كثير الممتلكات ولم يمض طويل وقت حتى آانس سليمان بك في يعقوب الامانة والمقدرة فأولاه ثقته وأقامه مديراً عاماً لمالتيه .

وقد كانت هذه الادارة تقتضى جباية الضرائب والرسوم الجمركية وإيجارات الاراضى الزراعية . ويزيد تعقد هذه المهام اختلاف العملة وتعددتها وتغير قيمتها من حين الى حين فأكسبته خبرة واسعة مالية وادارية أعانتة على تأدية المهام التى عهدت اليه فيها الحملة الفرنسية لما قدمت الى مصر والى جانب ما تقدم أحرز يعقوب صفات عسكرية ممتازة من مرافقته للمماليك وكانوا ذوي بأس ومعروفين بالفروسية والشجاعة وميالين الى القتال ولما كانت تنقطع حروبهم ومناوشاتهم . فتمتع يعقوب ركوب الخيل وتدريب على الطعن بالسيف .

وكانت مؤهلات يعقوب وكفاءته المالية والادارية على النحو الذى كان سائداً فى زمانه سبيلا الى ثروة كبيرة جمعها فأصبح ذا ممتلكات وأموال وخدم وحشم ومستخدمين وأتباع فأضيف الى اسمه لقب «المعلم»

وهو لقب كان يعطى فى مصر فى القرون الوسطى للدلالة على الشرف
والزعامة ويطلق على كل من يبرز فى علم أو صناعة أو يحرز أموالاً وضياعاً .
ولما كان يعقوب فى الخامسة والعشرين من العمر تزوج بامرأته
الاولى « مختاره الطويل » وهى ابنة عمه وكان عمه رجلاً ثرياً يبلدة ملوى
له تجارة واسعة وممتلكات كثيرة وقد رزق يعقوب من امرأته هذه ولداً
مات طفلاً وبعد قليل لحقت به أمه بطاعون وذهبت ضحيته .

وبعد انقضاء اثنى عشرة سنة من وفاة زوجته الاولى تزوج بامرأته
الثانية وكانت فتاة سورية من حلب تدعى مريم نعمة الله البابوتجى . ولما
قدم القاهرة فى سنة ١٧٩٢ بارك البطريرك الانباؤانس الثامن عشر —
والمائة والسابع فى عدد البطارقة — هذا الزواج ولم يكن قد كتب
به عقد جرياً على العادة المتبعة الى ذلك الحين اذ كانت عقود الزواج
شفوية بايجاب وقبول . الا ان هذا الزواج سجل رسمياً فى فرنسا أمام
قاضى المصالحات فى سنة ١٨١٨ بشهادة شقيقي يعقوب وشهود آخرين
من أصدقاء الاسرة لمناسبة اثبات وفاة يعقوب واحصاء تركته وورثته
ومهم زوجته الثانية هذه .

وأتاح مجيء الفرنسيين الى أرض الفراغة فى أواخر القرن الثامن
عشر الميلادى للمعلم يعقوب الفرصة لظهار مواهبه فأصبح عظيماً من
عظماء التاريخ وذاعت شهرته فى الديار المصرية وفى الافطار المجاورة لها ،
فان الشريف حسن شريف مكة لقبه « بعظيم حملة ديسيه فى الوجه القبلى »
لما بلغه أنه أرسل جيشاً لتأييد مراد بك وطلب ان يستعد للقتال . كما ان

الممالك طلبوا وساطته في الصلح بينهم وبين ديسية .

هذا الرجل المقدم والفارس الشجاع القيت على عاتقه مهام لا يستطيع غيره النهوض بعبائها ولا كنه أداها على خير ما يرام وبأفضل أسلوب ابتغاء الوصول الى تحرير بلاده من يد الممالك والترك . ولما فتح بونابرت القاهرة واستقر به المقام قدم اليه جرجس الجوهري - وكان عميد القبط اذ ذاك - أعيان أبناء الطائفة وبينهم المعلم يعقوب ، فبين منهم المعلمين صدره الشماع وبانوب الحيزاوى وجرجس صرابمون وملطى ساروفيم ويوحنا الصولى رؤساء للمالية فى بعض المديریات .

أما يعقوب فقد احتفظ به لما هو أهم من ذلك . فانه لما لجأ الممالك الى الصعيد فكر بونابرت فى القضاء عليهم فجهز حملة بقيادة الجنرال ديسيه ، ولما كانت هذه الحملة بحاجة الى رجل أمين يجمع فى شخصه الصفات العسكرية والادارية وله خبرة تامة بالبلاد التي تحتازها الحملة والمأم تام بكيفية جمع ما تحتاج اليه من المؤن وقع اختياره على المعلم يعقوب فعينه مديراً عاماً للحملة .

وكان المعلم يعقوب عند حسن ظن بونابرت به فجهز للحملة المؤن والذخائر وأمن لها طرق المواصلات ورتب حركاتها وعين مواضع اقامتها ونظم الشؤون المالية والادارية على الوجه الاكمل وساعده على ذلك ما كان له فى نفوس أهل البلاد من منزلة رفيعة بدليل قول الضابط بليار « ان الشعب كان ينظر الى يعقوب كأنه السلطان الاعظم والقائد العام الذى احتل الصعيد » .

وقد نهض يعقوب وحده باعباء تموين الحملة والجيوش المتفرقة على طول النيل وليس ذلك فقط بل نهض أيضاً بإدارة مالية الوجه القبلى كله من توزيع الضرائب الى جبايتها والتوفيق بين الاوامر الجديدة التي كان يصدرها الجبرال ديزيه والانظمة القديمة المألوفة فى البلاد .

هذه المقدرة الفائقة جعلت له كلمة مسموعة فى الامور الادارية والسياسية ومن أدلة ذلك أنه لما كان (بليار) يتولى الاشراف على جباية الضرائب اذ تأخر أهل قرية من قرى بنى سويف عن تسديدها فقبض بليار على مشايخها رهينة عنده حتى يتم التسديد واتفق ان المعلم يعقوب وصل الى بنى سويف وقد كان آنياً مع الجبرال ديزيه من القيام فإان علم بالامر حتى احتج وطلب اخلاء سبيل الشيوخ المحجوزين والكف عن ارهاق الاهالى فوافقه الفرنسيون ولا سيما ديزيه وعملوا بنصيحته .

رجعة الى الماضى :

فى سنة ١٧٨٦ اى قبل مجيء نابليون بسنتين وقبل حملة الصعيد بنحو اثنتي عشرة سنة كان يعقوب يشترك مع المماليك فى حروبهم وغزواتهم كما تقدمت الاشارة الى ذلك . ومما يذكر عنه أنه رافق مراد بك فى محاربته للترك وشهد الواقعة التى دارت رحاها بالقرب من المنشية من اعمال اسيوط وكان له نصيب من النصر الذى أحرزه مراد بك .

ومما يدل على ان يعقوب قد تدرب على فهم الاصول والقواعد العسكرية أنه عندما وصلت جنود حملة الصعيد الى المنشية حيث دارت المعركة المشار اليها أخذ يصف للجبرال ديسيه وأركان حربه كيف انكسر

الترك . ويقول فيفان دينون وكان بين المستمعين للقصة ان يعقوب وان لم يتكلم عن نفسه في الوصف الدقيق للموقعة فقد فهم الجميع انه كانت له يد في هذه الموقعة وأثنوا عليه .

وحدث ان بونا برت غادر البلاد المصرية الى فرنسا بدعوة من حكومة الدير كتوار فسلم قيادة الجيش الى الجنرال كليبر وهذا تولى تنظيم المصالح ادارياً ومالياً وحينئذ ذكر ديسيه المعلم يعقوب ووجوب الانتفاع بخبرته ومقدرته فأوحى بذلك الى الجنرال كليبر فطلب منه الاشتراك معه في هذا العمل ومعاوته في تنفيذ مشروعاته فقبل ذلك ونهض بما عهد اليه فيه وجمع حوله مساعدين أحسن اختيارهم وجعل مكتبه في منزل البارودي وأدار الامور ادارة حسنة بما خول له من سلطة واسعة وكانت اختصاصاته تشبه اختصاصات وزير المالية في أيامنا هذه .

وبعد انتصار كليبر في معركة هليو بوليس « عين شمس » على الترك في ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ واخلاد ثورة القاهرة التي نشبت وقتئذ دخل الجنرال كليبر القاهرة ظافراً وفرض غرامة مقدارها ١٢ مليوناً من الفرنكات على سكانها وعهد الى المعلم يعقوب في جبايتها وخوله السلطة المطلقة لذلك فاستعمل الحكمة في تحصيلها دون ارهاق الاهلين في ذلك .

وذكر الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في تاريخه أنه عهد الى يعقوب غير ما تقدم في اعمال أخرى ادارية ومالية فكان يؤديها بسلطان مطلق .
ولما أتمت حملة الوجه القبلي مهمتها باخضاع الصعيد بأكمله الى اصوان

التمس ديسيه وهو عائد الى اسيوط وسيلة يتصل بها بمجنوده المتفرقين في البلاد على طول النيل اتصالاً مستمراً وسريعاً للمحافظة على الامن وكشف المعلم يعقوب بذلك فوعده بالتفكير في الامر ولما وصل الى اسنا خطر له ان يساعد الحملة وينظم فرقة من السعاة الهجانة تتولى البريد وكانت هذه هي الوسيلة الوحيدة السريعة في ذلك الوقت . وفي خلال اسبوع قضاه في اسنا دبر الرجال والهجن اللازمة ووزع الفرقة على المسافات فأعجب الجنرال ديسيه بالفكرة لانه جعله على اتصال دائم بمجنوده في الشمال والجنوب فكان يرسل الجرحى الى القاهرة ويتزود منها بالميرة والذخيرة .

* * *

ومن أعمال يعقوب الحربية مع الفرنسيين أنه كان ذات يوم سائراً في طليعة الجيش الفرنسي الذي يتجسس مكان العدو وكان ممتطياً جواداً مع الفرسان وقد علق في رقبته على الطريقة العربية سيفاً مرصعاً ووضع أمامه على السرج بندقية وفي منطقتيه غدارتين واستمرت الطليعة سائرة الى أن غابت عن أنظار الجيش وبلغت عن القوصية عند بلدة العتامنة من أعمال مديرية اسيوط وهناك وجدت الطليعة نفسها بغتة أمام جمع من الاعداء . ففي هذا الظرف الدقيق لم يفقد يعقوب رباطة جأشه بل تقدم وانتضى سيفه وفعل أفراد حاشيته مثله وأخذوا والخطر محقق بهم يقاتلون عدواً يبلغ عشرة أمثالهم ومافىء يعقوب يقاوم العدو ببسالة ويصمد له الى ان وصل ديسيه الى العتامنة على أثر علمه بأن خطراً يهدد مقدمة جيشه فمآه العدو حتى ولى الادبار ونجا يعقوب من الخطر فأسرع

ديسيه اليه وهنأه بيسالته وأهدى اليه سيفاً تذكاريًا .

وحسب يعقوب حساباً للطوارئ بعد ما شعر ان مصر محرومة من جيش وطني يمكن الاعتماد عليه في المهمات ففكر في تأليف فرقة قبطية وطلب ذلك من الفرنسيين فرخصوا له بتأليفها فجمعها من شبان من أهل الصعيد عملوا في الجيش الفرنسي عناءاً وعملاً وكانوا محو الفين ووكّل أمر تدريبهم على الحركات العسكرية الى ضباط انتقام كبير لهذا الغرض فأظهروا براعة في تعلم هذه الفنون .

وضم يعقوب الى الالفى شاب شباناً آخرين فتألف منهم الفيلق القبطى ولكن معظم هؤلاء الشبان عادوا بعد ذلك الى قراهم ولم يبق منهم سوى ٧٠٠ أو ٨٠٠ مقاتل تولى يعقوب قيادتهم وجهزهم بالسلاح والميرة من ماله الخاص . ولما توفي تولى القيادة بعده الكولونيل غبريال سيداروس ابن أخيه كما سيأتي بيانه وقد ترك لنا التاريخ شهادتين من رجال الحملة الفرنسية تثبتان تأليف هذا الفيلق وما بذله يعقوب من المال في هذا السبيل .

* * *

في أثناء معركة هليو بوليس « عين شمس » وهى التى دارت رحاها بين الجيش التركى بقيادة ناصف باشا والجيش الفرنسى بقيادة كبير العامة فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ دخل الى القاهرة خلسة كثير من افراد الجيش التركى وأخذوا يحرضون الاهلين على رفع راية العصيان واعلان الثورة في وجه الفرنسيين فأثمرت دعوتهم ونشبت الثورة فعلا ودامت

من ٢٧ مارس الى ١٥ ابريل سنة ١٨٠٠ وكانت نار هذه الثورة توشك أن تطفئ القبط بشواظها لولا أن يعقوب كان غنياً وشجاعاً فأحسن الدفاع عنهم وأنقذهم . اذ أظهر في تلك الظروف العصبية مقدرة عظيمة واستيقظت فيه الروح الحربية فحصد منزله في الدرب الواسع المجاور للميدان وثبت الى النهاية أمام حصار شديد كان فيه خصمه اللدود حسن بك الجداوي واستهدف لكل خطر وهو على رأس عسكره يشجعهم بأقواله الحماسية وأعماله الباهرة .

وكان حتى القبط في الازبكية محصوراً بين القلعة التي أنشأها يعقوب بجوار الجامع الاحمر من جانب وقنطرة الدكة من جانب آخر . فهدم يعقوب بعض الدور التي في آخر شارع القبيلة من جهة قنطرة الدكة وجعل منها حصناً ليكون الحى بين القلعة وهذا الحصن .

وفى هذا الصدد قال المرحوم يعقوب بك نخله رفيقه صاحب تاريخ الامة القبطية فى ص ٢٩٤ ما يأتى :

« قيل ان بعض الثائرين هجموا على جهة شارع القبيلة المعروف الآن بالسوق الكبير وسوق النصارى من نقطة كانت مهمة ودخلوا درب الجنينة وأغلقوا البوابة ووضعوا وراءها أحجاراً فأسرع يعقوب لانتقاذ من بها بطريقة لم تخطر على البال وذلك بأن أخرج من معاصره (للزيت والسيرج) ومعاصر غيره التي بجهة الجامع الاحمر جميع فحول الجاموس وأوقفها أمام البوابة وحصرها بين قوتين من العسكر وأمر الجنود بأن يرشقوا أجسامها بأسنة الرماح فزاحمت على البوابة فزحزحت الاحجار

التي وراءها وانفتحت فدخلت الجنود وقبضوا على الثائرين .

وقال أيضاً في ص ٢٨٩

« هذه القلعة بناها يعقوب بجوار الجامع الاحمر وكانت كما مر القول الحصن الشرقي لحى القبط في أثناء ثورة القاهرة . وذكر هذه القلعة الشيخ عبد الرحمن الجبرتي فقال : « وبني له (أى يعقوب) قلعة وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير تحيط به بدانات عظام وكذلك بنى أبراجاً في ظاهر الحارة جهة بركة الازبكية وفي جميع السور المحيط والابراج طيقاناً للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذي رمه الفرنسيون ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر اللازمين للوقوف ليلاً ونهاراً وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنسيين » .

وقال المرحوم يعقوب بك نخله رفيله في ص ٢٨٩ « انه شاهد بعينه آثار هذه القلعة قبل هدمها في أيام المرحوم اسماعيل باشا خديو مصر » .

* * *

لما عين الجنرال مينو القائد العام المسيو استيف مديرًا عامًا لايرادات الدولة احتاج الى خدمات المعلم يعقوب فجعله مستشاراً له . وفرضت ضرائب جديدة الا ان الاموال التي جيتت من الاهلين لم تسد حاجة الجيش وما كان يجب اتفاقه في الوقت عينه من المال على المشروعات والاعمال العامة في بلاد القطر . فاضطر القائد مينو الى ان يعقد قرصاً بمليون ونصف مليون من الفرنكات وفاوض المعلم يعقوب في شأنه .

فاتفق يعقوب مع أربعة من زملائه وهم المعلمون : جرجس الجوهري

وانطون أبو طاقة وفتاؤوس وملطى على ان يقدم كل منهم ٣٠٠ ألف فرنك وقدموها فعلا على ان تخصم من الضرائب المطلوبة من المديريات الداخلة في دائره اختصاصهم الادارى وأعطاهم استيف سندات بقيمتها على الخزانة الفرنسية .

وقد تقدمت الاشارة الى أنه فى مساء اليوم الذى كان فيه يعقوب يخاطر بحياته وهو فى طليعة جيش الجبال ديسيه عند بلدة العتامنة قدم اليه ديسيه سيفاً فخرياً وكان ذلك عند محطة بنى سند بحضور كبار قواده وضباطه وسائر الجيش ونقشت على السيف هذه العبارة « معركة عين القوصية » اعلا ناً بفضل يعقوب فى هذه الموقعة فى يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ولا يزال هذا السيف محفوظاً عند الباقيين من أفراد أسرته .

أهدى الجبال بونايرت الى يعقوب عباءة من الفرو وكانت عادة الشرقيين فى تكريم الاشخاص الممتازين اهداءهم كساوى تشريفة فجرى بونايرت على هذه العادة وكان يهدي العباآت باحتفال خاص ويعقوب هو أول من سلمه بونايرت بيده بعد جرجس الجوهري .

ولما الف يعقوب الفيلق القبطى سنحت للفرنسيين فرصة يظهرون فيها شكرهم له فرقاه الجبال كليير الى رتبة كولونل « اميرالاي » فى حفلة عسكرية ضخمة أقيمت فى أوائل مايو سنة ١٨٠٠ وأمر بأن يكون له حرس شرفى يرافقه فى تنقلاته ويقف أمام داره وأعطيت له براءة هذه الرتبة فى ١٠ اغسطس سنة ١٨٠٠ ممهورة بامضاء القائد داماس رئيس أركان حرب جيش الشرق .

وفى ٢٨ فبراير سنة ١٨٠١ دخل الاسطول الانجليزى مياه أبو قير
وأُنزل جيوشاً الى البر فاضطر القائد مينو للرحيل عن القاهرة لدفع الخطر
وأقام الجنرال بليار حاكماً على القاهرة وزوده بالتعليمات التى يتبعها اذا
زحف الجيش التركى ثم دعا الكولونل يعقوب ورقاه الى رتبة « جنرال »
باسم الجمهورية الفرنسية والبسه شارتهما الذهبية بنفسه حسب المتبع
وذلك فى مارس سنة ١٨٠١ وسلمت اليه براءة هذه الرتبة فى ٢٦ ابريل
من السنة عنها .

* * *

قلنا ان يعقوب أحرز ثروة كبيرة وقد أشار فينان دينون الى ما كان
ليعقوب من جاه وثروة فوصف احدى الحفلات أقامها للقائد ديسيه
وضابطه وأركان حربه فقال :

« حسب عادات البلاد كانت القاعات التى استقبلنا فيها مفروشة بالحصر
والسجاد والارائك وعلى جوانبها المساند وقدم لنا الخدم الماء المثلج
الممزوج بالروائح العطرية ثم الشبكات فالقهوة . وبعد نصف ساعة مد سماء
كبير وصفت على جانبيه ثلاثة أنواع أو أربعة من الكعك والفطير
وصفت وسط السماء أصناف الفاكهة والمربيات والالبان وكان معظمها
لذيذ الطعم وذا رائحة زكية . وقد تذوقنا منها كلها حتى أتينا على ما فى
المائدة فى دقائق . وبعد ساعتين وضع على السماء الخبز وطواجن الرز
الدم الممزوج باللبن وانضاف الخراف المشوية وارباع العجول ورؤوس
هذه الانعام مسلوقة وأكثر من ستين طبقاً كدست عليها أصناف عدة

أخرى من أنواع الخضر والفالودج والفطائر والعسل النقى .

« وبعد غسل الايدي تطيبنا بماء الورد ثم قدمت الشبكات والقهوة وحل محلنا على السماط فريق من أهل البلاد ثم أتى بعدهم غيرهم وبعد ذلك جاء دور الخدم والحشم حتى اتوا على آخره » .

« وفي الواقع ان يعقوب كانت له حاشية كبيرة تضم أمناء أسرار وصيارفه ورؤساء خدم وحجبا يحملون العصي ذات الايدي الكروية من ذهب أو فضة وقواصة يفسحون الطريق أمامه وغيرهم من الخدم الذين يؤدون الخدمات الصغيرة نخادم للشبك وآخر للركاب وثالث للمباخر الخ ويتراوح عددهم بين ثمانين ومئة وكان يملك الحياض والبغال التي تحمل الاثقال والجمال والسرج المطعمة بالمعادن الثمينة وفي منزله كثير من النساء الخادومات اللاتي يقمن بالخدمات المنزلية والجوارى السودانيات والحشيات .

« ويطول بنا الكلام اذا وصفنا كل ما كان يحيط بالمعلم يعقوب من مظاهر الابهة والمجد أما هو فقد ازداد علماً وارتفعت منزلته وكتب له القدر أن يصعد دائماً مدارج العلا وان يثبت للعالم ان جل مراده هو تحقيق أمنيته الوحيدة في خدمة الوطن ورفع شأنه .

* * *

لما عاد ديسيه الى فرنسا بعد معاهدة العريش التحق بالجيش الذي كان يحارب في النمسا وشهد موقعة مارنجو وهي التي انتصر فيها الجيش الفرنسي ولكن قتل فيها في ١٤ يونه سنة ١٨٠٠ .

ووصل خبر قتله الى الجيش في مصر بعد ذلك بثلاثة أشهر فأقيمت

حفلة عسكرية لذكراه فى يوم ٢ نوفمبر سنة ١٨٠٠ شهدها المعلم يعقوب بملابسه الرسمية محاطا بحرسه الشرفى ورجال فرقته وكان أشد جميع القواد حزناً عليه .

ولما علم ان الجيوش تكتتب بالمال لاقامة تمثال لديسيه فى باريس كتب الى الجنرال مينو كتابا باللغة الفرنسية هذه ترجمته :

« من يعقوب القائد العام للفيلق القبطى الى القائد العام مينو

« فى هذا الوقت الرهيب الذى يشعر فيه كل امرئ بعظم خسارة الجمهورية بفقد ديسييه المقدم الذى بذل نفسه فى سهول مارنجو اسمحوا لى وانا رفيق ديسييه فى أعماله بالصعيد بأن أنثر عن بعد الزهور على ضريحه وأسكب العبرات التى هى ترجمان الحزن الذى شملنى . ويعجز لسانى عن التعبير عنه وأتى لى ان أجد كلمات تكفى لاظهار مقدار التياغى .

« ديسييه ! ديسييه ! انهم يقيمون لك أثراً فى فرنسا فيعقوب الذى كنت تحبه ويعزك سيدفع تلك نفقات ذلك الأثر بمفرده باللغة ما بلغت . واذا بقى هذا الأثر شاهداً بأخبار الوقائع والحروب التى خضت غمارها لاسترجاع الصعيد من أيدي المماليك واخضاعه فيسعلم الخلف منه أن يعقوب القبطى حارب الى جانبك واستحق اجلاك واعزازك وقد أخلص لك ووهبك فؤاده من زمن مضى . »

« المعلم يعقوب »

الجنرال يعقوب كما يجب ان تنظر اليه : لا يرى التاريخ الصحيح فى موقف العامة وزعمائها وأهل الراى فيها أثراً لفكرة الاستقلال الوطنى ولا سبيل الا لمصرى واحد من أهل هذا العصر فضل اعتبار الاحتلال

الفرنسي لا فترة نحس يرجي زوالها وعود الى ما سبقها . بل بدء حياة جديدة لمصر والمصريين مهدت لها الحملة الفرنسية بقطع التبعية العثمانية ذلك المصري هو المعلم يعقوب حنا . ولا أحب ان أغلو فأزعم ان يعقوب فهم تماماً كل الاحتمالات التي انطوى عليها هدم النظم القائمة في مصر وحكم أمة غريبة لها ، وان تحول في هذه الاشهر القليلة التي قضاهم مخالطاً للفرنسيين من جاب من حياة الاموال درج ونشأ ودرج في بيت من بيوت الامراء المماليك في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الى داع من دعاة الحركات الوطنية التي يعرفها الغرب في القرن التاسع عشر . بل أجد يعقوب يحتفظ حتى بعد مخالطة الفرنسيين ببعض صفات الحياة وعمال الادارة المالية ، ولاكنه بالرغم من ذلك تأثر تأثراً يئناً بائصاله بالفرنسيين وبالغرب فكون رأياً خاصاً عن حكمهم لمصر وما يمكن أن يؤدي اليه ولا يشاركه في هذا الرأي أحداً غيره . وعلى ذلك فيرد ذكر يعقوب في تاريخه الجبرتي مصحوباً بالعين . وكان هذا موضع الاضطهاد في تاريخه بالرغم من موقفه السليم الذي لا غبار عليه وسعيه في الوصول الى الاستقلال لمصر حتي أنه سافر الى فرنسا أثر خروج الحملة الفرنسية .

خدمات يعقوب للحكم الفرنسي من نوعين : خدمات من نوع ما كان

يقوم به للفرنسيين جرجس جوهرى وملطى وابو طاقية وغيرهم من كبار الاقباط أساسها السعى للنفع الشخصي من جهة والخلاص مما كانوا فيه من امتنان لا يرفعهم من حضيضه مال او جباه ولا يفارقهم مهما زادت حاجة الحكام اليهم ، وخدمات من نوع آخر أساسها التمهيد لمستقبل البلاد

السياسى بالتعزيد المؤقت للحكم الغربى .

ومن حق النظر فى أحوال الشعوب الشرقية الخاضعة لحكم السلطان أثناء القرن التاسع عشر يجد ان الطوائف الغير الاسلاميه منها نظرت فى أول الامر للتدخل الغربى فى شئونها بالعين التي نظرها اليه يعقوب فى آخر القرن الثامن عشر .

أول ما فى تأييد يعقوب للتدخل الغربى تخليص وطنه من حكم لا هو عثمانى ولا هو مملوكى وانما هو مزيج من مساويء الفوضى والعنف والاسراف ولا خير فيه للمحكومين ولا للحاكمين اذا اعتبرناهم دولة قائمة مستمرة . فرأى يعقوب ان أى نوع من أنواع الحكم لا يمكن ان يكون اسوأ مما خضعت له مصر قبل قدوم بوناپرت .

وثانى ما فى تأييده للاحتلال الفرنسى انه أتاح فرصة الاتصال بالغرب والتعلم منه . ولا يقل عن هذا شأناً — فى نظره — ما أتاحه هذا الاحتلال من انشاء قوة حرية مصرنة (قبطية فى ذلك العهد) مدربة على النظم العسكرية الغربية . ونحن نسلم بأن هذه القوة كانت أداة من أدوات تثبيت الاحتلال . وبأنه لولا هذا ما سمحت السلطات الفرنسية بانشائها وتسليحها وتدريبها ، غير انه يلزمنا ان نذكر ايضاً ان الدلائل كلها كانت تدل على ان هذا الاحتلال لن يدوم ، وان القائد كبير نفسه الذي أذن بانشاء القوة القبطية كان لا يري البقاء فى مصر وانه لهذا حاول — كما نعلم — الجلاء عنها بعقد اتفاق العريش فى يناير ١٨٠٠

ذلك الاتفاق الذى كان له بعض العذر فى نقضه . وتبين لنا فى موضع آخر من هذه الكتاب ان بعض أصدقاء يعقوب من الفرنسيين اهتموا بمستقبل القوة الحربية القبطية أكثر مما اهتموا بحاضرها واهم كانوا يحبون ان يروها على حال من البأس يجعلها العنصر المرجح فى مستقبل مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها .

كان وجود الفرقة القبطية اذن أول شرط أساسي يمكن رجلا من أفراد الامة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من ان يكون له أثر فى أحوال هذه الامة اذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعشون فيها فساداً ، على الرغم من انه لا ينتمى لاهل السيف من المماليك والعثمانيين ، وبغير هذه القوة يبقى المصريون حينما كانوا بالامس : الصبر على مضض او الالتجاء لوساطة المشايخ او الهياج الشعبي الذى لا يؤدى لتغيير جوهرى ، والذي يدفعون هم ثمنه دون سواهم ، وهنا الفرق الاكبر بين يعقوب وعمر مكرم . يعقوب يرمى الى الاعتماد على القوة المدربة والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبي الذى تسهل اثارته ولا يسهل كبح جماحه والذي قد يصل سريعاً لتحقيق أغراض حاسمة ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسى الدائم المثمر . فكما ان العامة سريعة الهياج فى أوقات الخلل واضطراب الحكم فهى أيضاً سريعة القنوط خصوصاً اذا اصطدمت بجند مسلحين حتى ولو كان أولئك الجند من نوع ما كان فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر من ترك والبانين ومن ماثلهم . وقد رأينا ما كان من أمر السيد عمر لما وجد أمامه محمد على

لا خورشيد . هذا الفرق بين الاداة التي اختارها يعقوب وتلك التي اختارها السيد عمر ، ليس في الواقع الا مظهراً لفروق أعمق ، اذا ما حاجة هذا السيد نقيب الاشراف الى جيش ، والرجل لا يتصور مصر الا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان ولا يرمى الى أبعد من ان يملئ ارادته على القائمين بالامر فيها مدافعاً عن أفراد الرعية كلما زاد الفساد ؟ وهو لهذا يكفيه قيام أهل القاهرة واجتماع كلمة العلماء . اما يعقوب فله شأن آخر . اذ أنه لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وانما يعمل على ان تكون لفئة من المصريين يد في تقرير مصير البلاد بدلا من ان يبقى حظهم كما كان في الحوادث الماضية مقصوراً على التفرج او الاشتراك في نهب المهزومين : ذكر الجبرتي في حوادث المحرم سنة ١٢١٨ في كلامه عن اشتباك الالبانيين بأتراك الوالى العثمانى خسروا — ذلك الاشتباك الذى انتهى آخر الامر بولاية محمد على ، ذكر ان الالبانيين كانوا يقولون للعامة من أهل القاهرة : « نحن مع بعضنا وأنتم رعية فلا علاقة لكم بنا » أنتم رعية ، تخضعون لمن ينتصر منا . هذا كل ما لكم ! (ذكرت في الجبرتي ص ٢٥٥ جزء ٣) .

أراد يعقوب ان يكون الامر غير ذلك ، وعول على ان تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية ، فكان سباقاً الى تفهم الدرس الذي القاه انتصار الفرنسيين على المماليك ، او قل الى ادراك ما أدركه محمد على بعد قليل من ان سر انتصار الغربيين في جودة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية ، فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان .

السفر : أبحرت البارجة في ١٠ اغسطس سنة ١٨٠١ وبقي الجرال يعقوب واقفاً على ظهرها ينظر الى الشواطىء المصرية الى ان غابت عن عينيه . وقد كان يعقوب يؤمل ان يصل فرنسا لا يعيش فيها ويقطع صلته ببلاده بل ليتقرب الى حكومتها بما كان له من منزلة في نقوس القابضين على أزمة شؤونها ثم ليتخذ من ذلك وسيلة الى خدمة وطنه بالمشروع الذى كان يشغل فكره الا وهو استقلال مصر .

ولكن الافدار قطعت عليه أحلامه اللذيذة وسارت رياحها على غير ما تنتهى سفينة آماله فقضى في البارجة يومين اثنين ثم أصيب بمرض فجائى لزم لاجله الفراش ولم يطل مرضه سوى أربعة أيام .

وفي اليوم الخامس من الرحيل أدرك الجميع ان حالته تزداد خطورة كما شعر هو بدنواً لجه فقابل الموت ببسالة وبقي متنبه العقل الى آخر لحظة فأوصى بكريمته (منه) وودع والدته واقاربه وطلب ان يرى الجرال بليار ليكلمه فأسرع اليه ولما رآه وقف منتصباً ولكن قواه خارت فسقط على سريريه فأنحنى بليار ليعلم ما يريد الافضاء به اليه فكانت آخر كلمة خرجت من بين شفثيه هي ان توضع جثته بجانب ديسيه في مقبرة واحدة ، وأسلم الروح وكانت الساعة السادسة والنصف من صباح يوم ١٦ اغسطس سنة ١٨٠١ .

ولما وصل نبأ وفاته الى قومندان البارجة سجل في يوميتها وفاته والموضع الذى كانت فيه البارجة وقت الوفاة « وهـذـه كانت طريقة للاشتراك في الحزن » ولقد دون في اليومية ان البارجة كانت في لحظة

وفاة الجنرال يعقوب في درجة العرض الشمالى ٣٥ر٤١ ودرجة الطول شرقى جرينويتش ٢٩ .

وجرت العادة بأن الركاب الذين تفاجئهم منيهم في عرض البحار حينما تكون السفن بعيدة عن الشواطىء تلقى جثتهم فى البحر ولكن نظراً الى رفعة مقام الجنرال يعقوب لم تتبع هذه القاعدة فى أمر جثته ووجدوا وسيلة لحفظها من الفساد وهى غمرها فى دن من الحمر الى ان تصل البارجة الى ميناء مرسيليا لتدفن فيها . وقد لزم للسفينة نحو شهر من الزمن لتقطع المسافة من المكان الذى كانت فيه عند الوفاة الى مرسيليا اذ انها لم تصل اليها الا فى ١٧ سبتمبر سنة ١٨٠١ .

وبعد خمسة أيام سمح بنقل جثمان يعقوب من السفينة الى المحجر الصحى واتفق ان ذلك اليوم وهو ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٠١ كان عيداً من أعياد الجمهورية فشهد نقله أقارب يعقوب والقبط الذين رافقوه وعدد كبير من الركاب وتولى اليحارة الانكليز بأمر رئيسهم انزال الجثة .

واعترافاً بفضل رجال البارجة ومكافأة لهم على المتاعب التى تحملوها قدم شقيقه حنين حنا عند وصوله الى مرسيليا لكل بحار هدية تعادل قيمتها ريالاً .

وبعد ما بقيت الجثة فى المحجر الصحى نحو ٢٥ يوماً احتفل بتشييدها احتفالاً فخماً أدت فيه عساكر جيش الحملة الفرنسوية التحية العسكرية وكذلك الفيلق القبطى ووصف ذلك شاهد عيان هو الطوبجى لويس يوسف بريكار فى يوميته فقال :

« في يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠١ خرجت من المحجر الصحى جيوش الجنرال روين وفي نفس هذا اليوم كان الاحتفال بتشييع جنازة المعلم يعقوب قائد الفيالق المسيحية في مصر وقد توفي في أثناء عبور البحر » ودفن يعقوب في مقبرة كانت ملحقة بالكنيسة القديمة للقديس مارتان ثم نقلت جثته الى الجبابة الجديدة المعروفة بجبابة القديس شارل ثم نقلت في سنة ١٨٦٥ الى جبابة القديس بطرس في مدفن عائلته ودفنت بجبابة كريمته التي توفيت في سنة ١٨١٢ وعمرها ١٩ سنة تحت ظل النخيل الذى غرسه أحفاده حول نصب المقبرة لتعيد ذكرى شاطئ النيل .

* * *

ويظهر قدر يعقوب من شهادات العظماء والمؤرخين واليك بعضاً منها :

(١) كتاب من القائد العام بونا برت (نشر بصفحة ٢٤٨ من تاريخ نقولا الترك) قدر فيه شجاعة الجنرال يعقوب قدرها ووعد به باعلاء مرتبته.

(٢) كتاب في ١٢ مارس سنة ١٨٠١ من الجنرال مينو يقول فيه :

« لو لم يكن الامر بحاجة الى شيء آخر غير الشجاعة يا يعقوب لاستصحبتك معي لاني واثق أنك من أشد المحاربين بأساً ولكنك تمتاز بصفات أخرى أكثر نفعاً من الشجاعة لذلك تركتك هنا لتسهر على مصلحة الجميع » الى ان قال « وأرجو ان تبث شجاعتك ونشاطك في القبط الذين تقودهم » .

(٣) أقوال الذين كانوا في جيش الشرق عن يعقوب . قال الجنرال بليار الذى اشترك في حملة غزو اقليم طيبة : « يعقوب القبطى يلعب الآن

دوراً عظيماً في البلاد فالاهلون ينظرون اليه كالسلطان الكبير وقد كانت فرقنا المكونة لجيش الوجه القبلي تنظر بعين الاحترام الى جيش المعلم يعقوب .

وقال فينان دينون الملحق بحملة مصر والمرافق لقوة الجبال ديسيه الى اصوان :

« المعلم يعقوب رجل ممتاز بمواهب عجيبة وهو مثال الامانة والاخلاص .. ويملك ثروة كبيرة كما ان له منزلة عالية في البلاد وهو ينفق بسعة كعادة الشرقيين في الكرم » .

وكتب الجرال مينو الى بونايرت كتابا في ١٠ برمير للسنة التاسعة للجمهورية ما يأتي :

« اني وجدت رجلا ذا دراية ومعرفة واسعة اسمه المعلم يعقوب وهو الذى يؤدى لنا خدمات باهرة ومنها تعزيز قوة الجيش بجنود اضافية من القبط لمساعدتنا » .

وقال المسيو جورج ريجو أحد الكتاب الحداث « ان كفاءة المعلم يعقوب المالية هي فوق كل مناقشة » .

وقال الاستاذ محمد صبرى فى مؤلفه تاريخ مصر الحديث المطبوع فى سنة ١٩٢٦ ما ملخصه :

« ان يعقوب فى بداية الاحتلال الفرنسى التحق بخدمة الفرنسيين الذين دخلوا مصر اصدقاء يحملون راية جديدة هي راية الحرية وبارح مصر على رأس وفد مصرى مؤلف من أعيان القبط وكانت فكرته

الاساسية مخاطبة انكلترا في أمر استقلال مصر ولكن وفاته العاجلة في الطريق قضت فجأة على مشروع مفاوضة دول أوروبا في ذلك الاستقلال »

* * *

وهنا نأتي الى أجد صفحة في تاريخ الجزائر يعقوب فانه في اليومين اللذين أقامهما في البارجة قبل مرضه اتصل بقائدها القومندان « جوزيف ادموندس » وأخذ يحدثه بما كان يحول في نفسه عن مستقبل بلاده فلقى من القومندان اصغاء واقبالا عليه واهتماما بحديثه لانه عرف قدره وأدرك أنه زعيم قومه فوثق به يعقوب وكشفه بما أعده من مشروعات لاستقلال مصر .

وكان حديثه مع القومندان سرىا لم يحضره سوى سكرتيره المدعو لاسكاريس ، ولما توفي يعقوب تولى لاسكاريس تدوين ذلك الحديث في مذكرات قدمها الى القومندان ادموندس وبسط فيها مشروع الاستقلال ونوع الحكومة الوطنية التي تؤلف في ظل هذا الاستقلال وطلب من القومندان ان يبلغها للحكومة الانكليزية كما أنه أرسل الى بونا برت القنصل الاول مذكرة بامضاء « نمر افندي » بالنيابة عن الوفد المصري ومذكرة ثالثة الى الميسو « تاليران » وزير الخارجية الفرنسية طالبا منه ان يستقبل هذا الوفد ليمسك له شقويا الغرض الذي يسعى اليه .

وقد نفذ القومندان ادموندس ما طلب منه فأرسل كتابا الى اللورد الاول للبحرية الانكليزية وأرفق به مذكرات لاسكاريس المشار اليه

وبقيت هذه الوثائق محفوظة في وزارة الخارجية الانكليزية الى ان عثر عليها من سنوات كما قدمنا .

وقيض الله في هذا العصر من كشف عن هذه الصحيفة الجيدة في تاريخ الجبال يعقوب اذ عثر الاستاذ شفيق غربال في سجلات وزارتي الخارجية الانكليزية والفرنسوية على ما يثبت ان يعقوب في سنة ١٨٠١ لما تبع الجيش الفرنسي الى فرنسا كان قصده تحقيق مشروع خطير هو الحصول على اعتراف الدول باستقلال مصر .

وقد أشار الى هذه الوثائق في مؤلفين له أحدهما باللغة الانكليزية وعنوانه « Question The Bēginning of the Egyptian » والثاني باللغة العربية وعنوانه « الجبال يعقوب والفرانس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١ » وقد طبع في سنة ١٩٣٢ . كما أشار اليها غيره من قبل .

وفي سنة ١٩٢٤ نشرت الجمعية الجغرافية الملكية بعنوان « مصر المستقلة — مشروع سنة ١٨٠١ — وثائق لم تنشر قبلا وجدت في محفوظات وزارة الخارجية في لندن » (وهي الوثائق التي يقول الاستاذ شفيق غربال في رسالته أنه عثر عليها هو أيضاً في هذه المحفوظات) — مقدمة باللغة الفرنسية بقلم المسيو جورج دوان تقتصر على نقل الفقرة الآتية منها وهذه ترجمتها :

« والذي زوم ان نذكره وننبه اليه هنا على ضوء الوثائق التي

وجدت حديثاً في محفوظات وزارة الخارجية الانكليزية هو ان فكرة الاستقلال المصري التي نشأت في ظل حملة بونا برت كانت قد خطرت منذ فجر القرن التاسع عشر للعصريين فان واحداً منهم وهو المعلم يعقوب القبطى أعرب عنها بلسانهم الا ان موته قبل الاوان في اغسطس سنة ١٨٠١ حال بينه وبين عرض هذه القضية والدفاع عنها أمام وزارات أوروبا .

شيء عن وثائق الاستقلال : بدأ الكاتب باهداء التحية للورد الاول للبحرية الانجليزية (الموجه اليه الخطاب) وتذكيره بأن اهتمامه بما تضمنته المذكرة فيه نفع دولته وان ما قد يقوم به لتحقيق استقلال مصر أجل ما يجدر بلورد انجليزى ان يسعى له . ثم أطنب فى وصف عظم هذا المشروع — تحقيق استقلال مصر . وان هذا الاستقلال يمدد سحب الجهل التى تكاثفت على هذا الوادى الذائع الصيت حيث مهد الحضارة ، فيه تعلم الاغريق وعن الاغريق ورثت أوروبا علومها وفنونها واستنارة أهلها . ألا يشير ذلك فى نفوس الغربيين شيئاً من عرفان الجميل فيردوا لمصر الاستقلال الذى به تستعيد ما كان لها ؟

ثم بين الكاتب ان مصر المستقلة لن تضر أحداً ، وان استقلالها وقد أصبحت موضع أطلاع الدول خير حل للمسألة المصرية . تلك المسألة التى اثارها الحملة الفرنسية والتى يحتم انهيار بناء الدولة العثمانية مواجهتها . وذكر ان مراد بك قيل موته أدرك مدى هذا التطور الاخير فى تاريخ بلاده وعبر عنه فى قوله « أن مصر قد عرفها كفار الغرب فلن ينفكوا

عن السعى للاستيلاء عليها .

وتناول أيضاً فى مذكرته بحث ما تصيبه الدولة الانجليزية من نفع فى تحقيق هذا المشروع فأكد صداقة المصريين للامة الانجليزية بعد ان عرفوا جنودها وبعد ان خبروا الحكم الفرنسى وأن سيدة البحار لا بد وان تسيطر بنفوذها على مصر وتكون اول من يستفيد من موقعها الجغرافى .

ولم يغفل الكاتب الكلام عن أمرين جوهريين . وقد جاء كلامه عنهما أضعف ما فى مذكرته : الاول نوع الحكومة المصرية المستقلة ، الثانى ما تتخذه هذه الحكومة للدفاع عن كيانها . اما عن نوع الحكومة فاكتمل بعد مراوغة كلامية بالقول بأنها ستكون وطنية عادلة حازمة وانها بذلك تنال احترام الامة وطاعتها وحبها ، أما عن وسائل الدفاع فنجد انه يقرر ان الحكومة الوطنية لن تقوى على صد اعتداء أوربي الا بعد مضى زمن طويل ولكنها تستطيع أن تصد الترك وتسحق الممالك بجيشها الوطنى تشد أزره قوة حريه أوربيه ويبدل المال لرجال الباب العالى .

وتؤكد المذكرة فى النهاية أن الفكرة الاستقلالية لها أنصار فى مصر وان هؤلاء الانصار يخفونها حذر الموت ، ويطلب صاحب المذكرة حمايتهم من اضطهاد العثمانيين اذا ما رفضت الدول انشاء دولة مصرية مستقلة . أما خطة « الوفد المصرى » فى القريب فانها ستكون السعى لدى

الحكومة الفرنسية لاقناعها بقبول قاعدة الاستقلال في مفاوضاتها مع الحكومة الانجليزية على مصر . ويرجو ان لا يكون مصدر الاقتراح الفرنسى مما يحمل الحكومة الانجليزية على رفضه حذر دسيسة سياسية فرنسية . ويطلب في النهاية أن تكون مخابرات المجلثة مع الوفد شفوية عن طريق الكونت انطون كاسيس المقيم في تريستا « ١ » .

وفعلا قدمت للفصل الاول بونا برت مذكرة موقعا عليها من « نمر افندى » بالنيابة عن الوفد المصري وهذه المذكرة خالية طبعاً من التعريض بالحكم الفرنسى ومن تفضيل المصريين للانجليز ذلك التفضيل الوارد في المذكرة لانجلثة على أنها تتفق معها في الغاية الاستقلالية وتطلب تحقيقها باسم التاريخ والانسانية .

وأردف هذه المذكرة بأخرى لوزير خارجية فرنسا - تاليران - يقرر فيها الغرض الاسمى ويعتذر عن الاجمال تاركا التفصيل الى ان يستقبلهم الوزير في باريس اذ العرب يحيدون الكلام أكثر مما يحيدون الكتابة . وطلب من الوزير ان يستقبلهم بزيهم الشرقي اذ ان المسلمين منهم يعز عليهم ابدال غيرة به ، فضلا عن ان هذا الزى يثير في نفس بونا برت ذكرى فتوحه ويعرف من لم ير مصر من الفرنسيين بالشرق وأهله .

* * *

(١) تحت هذا الاسم ولقب النبل الغربيين يستتر مصرى قبطنى اسمه انطون قسيس . عمل في ادارة الجمارك في الاسكندرية أيام المماليك .

لا الاورد الاول للبحر — رية الانجليزية ولا القنصل الاول ولا وزير الخارجية الفرنسيه اهتم بما في هذه المذكرات بل اودعوها سجلات الحكومة .

وفي « مقدمات الصلح » بين فرنسا وانجلترا اتفق على اعادة مصر للدولة العثمانية وأدمج هذا الاتفاق في معاهدة الصلح النهائية : معاهدة أميان . وفي سياسة الحكومتين قبل أميان وبعدها لم يتعد اهتمامهما بأحوال مصر ونوع حكومتها ما تعلق منها بعلاقة الدولة العثمانية بالممالك . وحتى في هذا لم يكن الاهتمام بها الا من حيث تأثيرها في تسهيل — أو منع — وقوع مصر في حكم انجلترا أو في حكم فرنسا لا من حيث تأثيرها في رفاهية أو سعادة الشعب المصرى .

لم يكن اذن لهذه المذكرات أى أثر واقعى رغم هذا لا تخلو هذه المذكرات من شبه لما قرره المصريون وما أعلنوه في ايام أقرب اليها من سنة ١٨٠١ : في اتباع طريق المفاوضة للحصول على الاستقلال وفي توطيده بالاعتراف الدولى ، وفي تبرير طلب الاستقلال بالتثوية بمجد مصر ، وبأن عظمة الماضى تبعث على الامل فى عظمة المستقبل ، وبأن مصر بها من الموارد فى المال والرجال ما يكفل قيام الدولة المستقلة ، وأخيراً بأن موقعها الجغرافى يجعلها موضع التنافس وان الدولة التى تسيطر عليها تصبح من القوة بحيث تتحكم فى مصالح الدول الاخرى الحيوية وخير الجميع فى استقلالها .

الملحق الاول

من القبطان جوزيف آدموندس ربان السفينة الحربية بالاس
للالر أوف سانت فنسنت اللورد الاول للبحرية الانجليزية
على ظهر السفينة بالاس جزيرة منورقة في ٤ اكتوبر سنة ١٨٠١
سيدي :

استبحت لنفسى ان ارسل لكم المذكرات المرفقة بكتاتى هذا اعتماداً
منى بأنه قد يهم حكومة بلادي ان تعلم ان أشخاصاً يسمون أنفسهم بالوفد
المصري يقيمون في باريس في الوقت الحاضر .

كان ممن ركب في مصر السفينة بالاس تحت أمرتى رجل قبلى ذو
سمعة حسنة جداً وهو من زعماء طائفته وله فيها نفوذ كبير وقد منحه
الفرنسيون لقب جنرال لينالوا تأييده .

عنيت بعض العناية بهذا المنفى السيء الحظ مما جعله يحادثنى فى شئون
بلاده . وقد صرح لى بأنه يعتقد ان أى أنواع الحكم في مصر أفضل من
حكم الترك لها وانه انضم للفرنسيين تلبية لباعث وطنى عليه يخفف عن
مواطنيه ما قاسوه وان الفرنسيين خدعوه وان المصريين فى الوقت الحاضر
يحتقرونهم كما كانوا يحتقرون الترك وانه لم يفقد بعد آماله فى خدمة بلاده
وان ارتحال له لفرنسا قد يمكنه من هذا . وقال أيضاً ان الفرنسيين جعلوه
يعتقد ان دولتهم لها قوة السيطرة فى أوربا وأنه لم يعرف الا قليلا عن
قوة إنجلترا البحرية ولكنه كان يعرف رغم هذا أنه بلا موافقة إنجلترا

فان رغبته في قيام حكومة مستقلة بمصر لن تتحقق وأضاف صديقه
 لاسكاريس (وهكذا وصف نفسه) وكان يترجم أقواله لى ان الجنرال
 المعلم يعقوب يرأس وفداً فوضه أو عينه أعيان مصر لمفاوضة الدول
 الاوربية في أمر استقلالها . وأثناء سفرنا مات الجنرال وقام الترجمان
 (لاسكاريس) بتحرير مذكرات أحاديثنا المرفقة بكتائى هذا . وقد أعرب
 لى الجنرال قبل موته عن رغبته في ان أبلغ موضوع هذه الاحاديث
 لقائد القوات البريطانية الأعلى كى تعلم به الحكومة البريطانية بواسطته .
 وقد قرر لى المسيو لاسكاريس ان الوفد لم يزل باقياً وان المفوضين
 الآخرين على ظهر السفينة بالاس لا يزالون أعضاء فيه . هذا وانى لم
 أتمكن من ان أتبين هل هو واحد من هؤلاء المفوضين أو أنه ليس الا
 سكرتيراً مترجماً له . وأعتقد من كلامه أنه رجل خيالى . وأظنه يدمونتي
 الاصل وسمعت انه من أولئك الفرسان الذين تركوا جزيرة مالطة
 وتبعوا جيش بونابرت . وقد أعطيت ميثاقى للمعلم يعقوب بأن أمتنع أنا
 والحكومة البريطانية من استعمال ما أبلغناه اياه استعمالاً يؤذيهم . هذا ولما
 كان من المحتمل جداً ذهاب هذا الوفد الذي لا يمكننى تقدير مدى
 ما بيده من تفويض للاقامة في باريس فقد رأيت وجوب تبليغكم هذه
 المذكرات والاحاديث مباشرة . اذ قد يمضى بعض الوقت قبل ان
 أجد فرصة لا بلاغها أولاً لرئيسى اللورد كيث . وأرجو أن تتنازلوا
 فتقروا مسلكى هذا .

ولى الشرف ... الخ

الملحق الثانى

مذكرات مرفوعة للقبطان آدموندس لتذكره في الوقت المناسب له برؤوس أهم الموضوعات التي تبادلناها في أحاديثنا السياسية على ظهر سفينته

(١)

الخطاب المرفقة به هذه المذكرات موجه للورد النبيل « ١ » . وقد يظهر لأول وهلة أنه ليس إلا رجاء بسيطاً عادياً في الاهتمام بنا معشر المصريين التعماء . ولكنه يجب ان يعتبره في الحقيقة مدخض الاحاديث السياسية التي دارت بيننا على ظهر السفينة هذا ولما كان الاسهاب في شرح خطتنا في الوقت الحاضر أمراً أقل ما فيه الرعونة فان هذه المذكرات القصيرة المكتوبة على عجل قد تكفى على الاقل لتذكيرك بأهم موضوعات أحاديثنا ، ومتى حان زمن ابلاغك اياها اما مباشرة لحكومتك أو للورد النبيل فالمصريون لوثوقهم بما انطوت عليه سمجيتك يدعون لحسن فطنتك بعثه على الاهتمام بأمرهم . حتي يكون لنا مما يكتبه للوزارة البريطانية أو مما يقوم به عند عودته لابلجتره مسند نستند اليه لدي حكومته . وليثق بأنه سينتصر لقضية فيها منافع لامته . وأى قضية اليق بسعى لورد نبيل مثله !

(٢)

واذا سلمنا بأن ما سيعرضه الوفد المصرى لدى الحكومات الاوربية

(١) الظاهر ان لاسكاريس ظن ان ادموندس قد يكتب اولاً لرئيسه المباشر اللورد كيث لا مباشرة الى اللورد الاول للبحرية كما فعل .

على تلك الحكومات باسم المصريين الذين فوضوه قد يظهر قليل الاهمية أمام أعينها فلتعترف معنا على الأقل - أيها القبطان - ان الدول لن تعمل أبداً عملاً أجد وأنبل من ان تبدد بقرار سياسى واحد ظلمات الجبل والوحشية التي تكاثفت على هذه البلاد الذائعة الصيت . تلك البلاد التي يمكن القول عنها اجمالاً أنها كانت موضع قيام الحضارة التي نقلها اليونان عنها ومن اليونان وصلت لنا . واذا عجزت مصر بعد زوال عزها وازدهارها عن ان تثير شعوراً بعرفان صنعها وما قدمته من خير فلتثر على الأقل عطف الدول الاوربية عليها حتى اذا ما كان ذلك وردوا اليها أمرها أمكنها أن ترضى جميع الدول التي تطمع فيها ولا تصاب بسبب ذلك أى واحدة منها في مصالحها .

(٣)

وقد يحل زمن ليس بالبعيد ترضى فيه الدولة البريطانية عن هذا الحل (للمسألة المصرية) وفي هذه الاثناء قد تقترحه عليها الحكومة الفرنسية . عندئذ يجب على الحكومة الانجليزية ان تعلم ان الاقتراح نتيجة جهود الوفد المصرى فعلها اذن ان لا يريها أمره . . فان المصريين « ١ » .. ولا نظن ان فرنسا تتقدم بهذا المشروع السياسي الا على سبيل المجارة والواقع ان تحقيقه ليس في صالحها كما هو في صالح انجلترا . ومما لاشك فيه ان حكومة الجمهورية الفرنسية لا تزال على ما كانت عليه من الرغبة

في تملك مصر .

(٤)

تداعى الامبراطورية العثمانية في جميع أجزائها للانحلال . وبهم الانجليز اذن قبل حدوث هذا ان يدبروا لانفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الاستفادة من هذا الحادث المهم عند وقوعه . واذا تبين لهم استحالة استثمارهم - كما استحال هذا على فرنسا - (فليس عوضاً عنه) خضوع مصر المستقلة لنفوذ انجلترا صاحبة النفوذ في البحار المحيطة بها . وليس من شك في ان الاستقلال يعيد لمصر رخاءها . ولكنها لن تكون الا دولة زراعية تستمد غناها من الحاصلات الوفيرة التي تنتجها أرضها الخصبة ومن كونها المخرج والمدخل الوحيدين لتجارة افريقية الوسطى . ولا بد من ان انجلترا بحكم مركزها في الهند تهتم جداً بالتجارة مع مصر وما حولها من المناطق فلستفيد بذلك أكبر استفادة مما اختصت به مصر من المزايا .

(٥)

وكان مراد بك يقول - وربما كان على حق في قوله - ان كفار الغرب (كذلك سمي الامم الاوربية) قد صاروا يعرفون مصر أكثر من اللازم وان الكل يسعى لاملاكها وانها ستكون دائماً مثار اختلافهم . قد يقال ان انجلترا لا حاجة بها الى ذلك الامتلاك اذ ان سيادتها البحرية نتم ان تكون كل تجارة مصر في يدها وانها بذلك يكون لها

ما تريد من نفوذ في مصر . ولكن ماذا يكون من أمر هذا النفوذ اذا رجعت فرنسا كما كانت حليفة الباب العالي الطبيعية وأخذت الدولة العثمانية تجرى على سياسة ارضائها أكثر من ارضاء انجلترا ؟ ألا تذهب الدولة في هذه الخطة فتغلق أبواب مرافئها في وجه الانجليز ؟ اليس من الممكن ان يضغط الفرنسيون على الترك برأ فيحملوهم على الامعان في عداائم للانجليز وتحطيم تجارتهم في أراضي الشرق الادنى وفي البحر الاحمر ؟

(٦)

أما عما يخلج نفوس المصريين من عواطف نحو الفرنسيين فمبعثها ما اتبعه هؤلاء من طرق في حكمهم أثناء احتلالهم البلاد . ولا حاجة بي للكلام في هذا لاني أعتقد أنك تتذكر بسهولة ما دار بيننا من حديث فيه . كل شيء اذن يبرهن — الاسباب السابقة ، وما يشعر به المصريون نحو الانجليز بعد ان أمكن لهم تقديرهم حقاً — ان مصر المستقلة لا تستطيع الا ان تكون موالية لانجلترا . فعلى هذه اذن ان تسمح سياسياً على الاقل باستقلالها هذا اذا لم تستطع تأييده بعد حدوثه . يملى هذه الخطة ما توقعه من حوادث في المستقبل ...

(٧)

فرضنا ان حكومات الدول الاوربية سمحت باستقلال مصر . كيف يحكم المصريون أنفسهم ؟ وكيف يدافعون عن استقلالهم ؟

(١) لا يسمح لنا تعجلنا في تحرير هذه المذكرات بتفصيل الخطة

التي يفكر فيها الوفد المصري لحكم البلاد . ويكفى الآن ان نلاحظ ان المسألة هنا ليست مسألة انقلاب منشؤه استنارة الاممة واحتكاك أراء فلسفية بعضها ببعض . لا يقوم نظام الحكم الجديد على شيء من هذا ، بل تضع قواعده الظروف القاهرة وتخضع له رعية مسالمة جاهلة لا يعرف أفرادها الآن ، أو يكادون لا يعرفون الا عاطفتين خليقتين : المصلحة والخوف . فان أمكن الحكومة الجديدة (وليس هذا بالامر العسير) ان ترفه من عيش الناس بعض الشيء وان تزيد كسبهم قليلا فمن المحقق أنها تجد منهم نصراء متحمسين ، او ليس أي نظام أفضل من الاستبداد التركي ؟ لـتكن اذن الحكومة الجديدة عادلة حازمة وطنية كما كانت حكومة الشيخ همام الربيعي في الصعيد (وقد حدثتكم عن تاريخه) ولتلق عند ذلك بأنها ستحترم وتطاع وتحب .

(٢) كيف يدافع المصريون عن استقلالهم ؟ ماذا يصنعون لو اعتدت عليه دولة أوربية ؟ لا تتوقع حدوث شيء من هذا الا بعد زمن طويل وعند ذلك يكون قد تم تنظيم الجيش الوطني وجعله بحيث لا يستطيع رد الاعتداء . اما ان كان الاعتداء من جانب الترك او المماليك فانا نعتقد ان الدول الاوربية تحظر عليهم مس استقلال مصر . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان المصريين يمكنهم ان يستخدموا جيشاً أجنبياً من ١٢٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ جندي وينفقوا عليه . ويكفى هذا الجيش لصد الترك عند حد الصحراء ولسحق المماليك في مصر نفسها ويكون هذا الجيش الاجنبي

أيضاً نواة الجيش الوطنى . وهذا لما نعلمه من تأثير الذهب فى العثمانيين وأنهم يعملون أى عمل للحصول عليه فاتنا نستطيع ردهم عن مصر ببذله لهم . وكان المماليك يستخدمون المال كلما رأوا سحب السياسة تتلبد فى القسطنطينية وتندهرهم بشر مستطير .

وينبغى ألا يفوتنا ان نذكر ان المصريين منقسمون بين عدة طوائف وان هذا الانقسام يتيح الوسائل لدفع هذه الطوائف بعضها ببعض فتسكافاً بذلك قواها . وللوفا المصرى صلات بهذه الطوائف على اختلافها ولا يشحاز لواحدة منها دون الآخرى . وهذه الصلات مستورة وستظل مستورة تماماً عن الحكومة التركية فى مصر ولا بد من هذه الحيلة ازاء حكم مستبد يأخذ الناس بالشبهات . ولو عرف الترك حقيقة الامر لما ترددوا فى الفتك بأخوان الاستقلال عن آخرهم . والذين هجروا مصر مع الجيش الفرنسى من هؤلاء الاخوان قد تحمدوا غضب الترك (وأمنوه) ولكن اخواننا فى مصر حالهم غير هذه . هم تحت السيف والعصا . فليس امامهم الا المواربة والظهور بمظهر عبيد السلطان المخلصين .

(٨)

سيدخل المصريون عامة ووفدهم لدى الحكومات الاوربية (خاصة) كل ما يستطيعون من جهد لتخليص أنفسهم بشكل ما من النير الذى يشغل حمله على بلادهم التعسة . ولكن اذا خاب سعيهم وشاء القدر ان يملك الترك هذه الاقاليم الجميلة الشهيرة وعرضها بذلك لتجدد الاغارات عليها

وجاءت معاهدات الصلح العام بين الدول على عكس ما يشتهون فأقول
ما يرجوه المهاجرون المصريون من الدول المتعاهدة ان تدبر لهم ضماناً
يقيهم على الاقل ، اذا عادوا لوطنهم ، شر انتقام الترك منهم .

(٩)

هذا ولو ان الوفد المصري لدى الحكومات لن يعمل الا في تحقيق
مشروع سياسى فيه نفع جميع الحكومات بما فيها الحكومة التركية (وليس
تضمننا الحكومة التركية على غرابته من شطط القول فانا يمكننا البرهنة
على صحته) فقد تعرض أحوال لا بد فيها من المحافظة على سير المفاوضة .
لذلك فانا نرفق بهذا « شفراً » يستعمل في مراسلاتنا عند الحاجة اليه .

(١٠)

ويرى الوفد المصري حرصاً على تحقيق ما يصبو له من ابلاغ المفاوضة
غايتها لزوم كتمان أمر ما فاتحناكم فيه من مميزات لها وما قد تبلغونه
للورد النبيل عن فرنسا وعن أى امرئ في مقدوره عرقلتها . وذلك ان
خطة الوفد ان يسعى في أوروبا كي تكون فرنسا البادئة بعرض المقترحات
الاولى (الخاصة بالاستقلال) على انجلترا ، وتكون انجلترا عندئذ قد
اقتنعت (وهذا الاقتناع ثمرة أحاديثنا معكم وسعى اللورد) بما في الاستقلال
المقترح من مزايا سياسيه فتؤيده . وبهذه الطريقة لا يتعرض الوفد المصري
لان يرى الحكومة الانجليزية ترفض المشروع تحت باعث من نفور الامتين
احدهما من الاخرى او حذر دسياسة من دسائس الجمهورية (الفرنسية) .

(١١)

هذا وكى تهسل مراسلتنا ونحن في فرنسا او في غيرها من البلاد
يمكنك أيها القبطان ان ترسل ما تريد للسنيور الكونت انطون كاسيس
المقيم في تريستا وهو يتولى ارسال الرسائل حيث يقيم الوفد ، على ان
يوضع تحت عنوانه عنواني . أما ما قد يرسل لى (من غيركم) من إنجلترا
فان وصولنا الى باريس يذيع أمرنا فلا تصعب معرفة أين أقيم . وبهذا
يسهل تسلمى ما قد تكتبه لى الحكومة (الانجليزية) . ولكن تلزم الحيلة
التامة في هذا الامر حتى لا تثار شكوك الحكومة الفرنسية بالمرة .

على ظهر السفينة بالاس في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٠١

الملحق الثالث

من عمر افندس بالنيابة عن الوفد المصري للقنصل الاول بونا برت
الى القنصل الاول للجمهورية الفرنسية من الوفد المصرى الكثير الحب له
محجر مارسيليا فى اوفنديمير من السنة العاشرة « ٢٣ سبتمبر ١٨٠١ »
فى أيام العالم الاولى ، فى تلك العصور البعيدة المجهولة ، عندما كانت
فرنسا لا تختلف كثيراً عما صورته الطبيعة ولا يظهر منها للناظر الا
جليد وغابات ، كانت مصر الزاهية المتحضرة تلقى دروس العلم والعرفان
على مئشرعى الاغريق . ثم دار الفلك دورته وشاء القدر ان يفد مصريو
اليوم الحاضر أحفاد معلمى الحضارة بالامس الى فرنسا وهى تحت حكم
الحالد الذكر ليدرسوا نظم أمة يحبونها ويعترفوا ما اهدت اليه من وسائل

لا عهد لغيرها من الأمم بها ، تلك الوسائل التي مكنت جمهورية ناشئة من صيانة ما كسبته في ميدان الحروب بما استحدثته من نظم سياسية جديدة . . . وكما ان سولون عند عودته لبلاده من مصر شرع للاغريق ، كذلك الوفد المصري الذي فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك سيضع لمصر ما ترضاه لها من نظم عند ما يعود لها من فرنسا . يكون هذا أيها القنصل الاول اذا تنزلت من أجل مجدك ولنفع الجمهورية السياسي فمددت يد المساعدة للمصريين البؤساء الذين حطمت في الماضي أغلالهم والذين عادوا ينوءون بها من جديد وأحسنست استقبال وكلائهم في باريس . وفي العاصمة سيكون استقبالنا حفلاً شرقياً يحدد ذكرى فتح عظيم نلته ثم فقدته . ولا بد أنك تحس احساساً شديداً بألم ما فقدت فأمر في معاهدات الصلح العام ان تكون مصر مستقلة تعوض عليك خسارتك مائة مرة . هذه هي أمانتنا وهذا ما أخذنا على أنفسنا ميثاقاً به .

عن الوفد المصري : وكيله — نمر افندى

الملحق الرابع

من نمر افندى لوزير الخارجية الفرنسية « تاليران »

« نفس التاريخ كالملاحق السابق »

« بعض مما جاء فيه »

سينزل في مرافئ الجمهورية الفرنسية عدد غير قليل من مهاجرين شرقيين تركوا بلادهم مع ذلك الجزء من جيش الشرق الذي تم جلاؤه

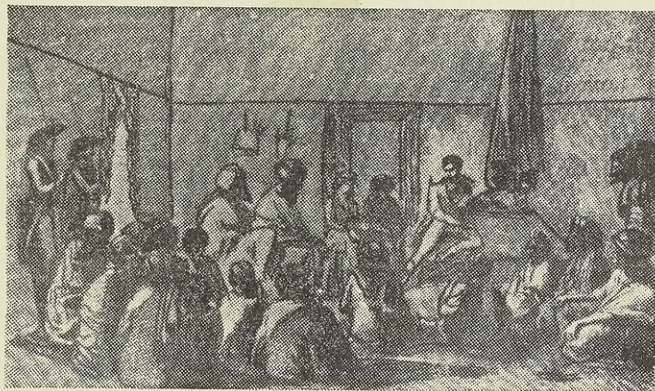
عن مصر . والوفد المصرى بالرغم من أنه قد حرم رئيسه الجنرال يعقوب الذى مات أثناء السفر يعلن كل ما يحس به من ولاء وحب للجمهورية الفرنسية ويرى من واجبه ان يلجأ اليك أيها الوزير لتفضل وتضعه هو وهؤلاء المهاجرين في كنفك — والوفد المصرى الذي ينوب عن الامة المصرية لدى الحكومة الفرنسية يمثل وحده كل ما يحول فى نفوس مفوضيه العديدين من شعور بصالح الجماعة وما يملأ أفئدتهم من أمانى وما يملكون من اصاله تدير ونفوذ وثروة ويعبر عما أجمعوا عليه من رغبتين : الاولى ، سحق القوة الغشوم التى تستبد بهم من جديد ، الثانية ، وضع أملهم في فرنسا — ولا يرى الوفد المصرى فى الوقت الحاضر فائدة في الاسهاب . فهو يستطيع في جلسة واحدة في باريس ان يبين عن مقاصده ما لا يستطيع في عشرين مذكرة سياسية . ونحن العرب نقدر في الكلام على ما نشاء وان كنا في الكتابة لا نبلغ الا جهد المقل . هذا الى أننا غير غافلين عما توجيه علينا كثرة شواغل السياسية من الاجمال في الرسائل . ونرجو التفضل بالرد على كتابنا هذا . وان تسمح لنا ان تفضلت باستقبالنا في باريس ان تقابلنا بزينا الشرقي . فالمسامون منا يشق عليهم خلع زيهم .

والوفد المصرى يعلم ان وقت القنصل الاول الذى تصدر عن ارادته أمور الحكم حتى في جزئياتها وتستظل الدولة في ظله الظليل آثمن من ان يصرفه في التفكه بقراءة ما يرد اليه من الرسائل الخاصة

ولكننا نرجو ان يقدر ان وفدنا جديد في بابه وأنه يصل الى فرنسا في
ظروف خاصة وان كتابنا له «^١» المرفق بهذا له ما له من أهمية فيتنزل
لتسليمه منا ويتأمله بحكمته البعيدة الغور .



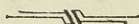
السيد عمر مكرم



اجتماع أول مجلس نيابي (ديوان المشايخ)

السيد عمر مكرم

١٧٥٥ — ١٨٢٣ (٦٨)



مولده : ككثير من العظماء العصامين لم يهتم الكتاب بتاريخ حياتهم الا بعد وفاتهم وظهور صيتهم فلم تعرف سنة ميلاده تماماً ولو ان بعضهم قدر لميلاده سنة ١٧٥٥ — وقد كانت ولادته في اسبوط من أسرة شريفة يقال انه لا يفوقها في شرف مجدها الا أسرتي السادات والبكرى .

وقد تعلم على أسلوب عصره وتخرج في الازهر وحصل على قسط من العلوم بمقدار انتشار التعليم في ذلك القرن . ولكن كانت عنايته بالاطلاع واضحة حتى انه اقتنى مكتبة كبيرة لا يزال بعض كتبها محفوظاً بدار الكتب المصرية يحمل اسمه . غير انه لم يشتغل بالتدريس ككل متخرجي الازهر واذا كان اهتمامه بالسياسة يشغله عن التصنيف والتأليف فلم ترى له كتب حتى عابه على ذلك بعض منافسيه بأنه كسول وصاحب حرفة وجاني وقف .

وقد شاهد حكم على بك الكبير ثم شاهد فتوحاته والانقلاب الذي أحدثه محمد بك ابو الذهب وزوال حكمه فطغيان ابراهيم بك ومراد الشريكان المتساويان في الظلم والاضطهاد .

بدؤه كسياسي : حضر القائد حسن باشا الجزائرلى التركى لتأديب ابراهيم بك ومراد بك مع جيش كبير اضطرهما للهرب الى الصعيد حيث استوطننا اسيوط فعرفا السيد عمر مكرم فلما رجع القائد التركى سنة ١٧٩١ تاركا الحكم فى أيدي حزب الامراء الذي لم يستطع الاحتفاظ به طويلا ، فانهز الفرصة ابراهيم ومراد وأرسلا السيد عمر مكرم مندوباً عنهما ليفاوض حزب الامراء فى رجوعهما واشتراكهما فى الحكم . حضر السيد عمر الى القاهرة ومكث بها يومين اثنين تمكن فيهما من تهديد السبيل لعودة صديقيه الى الحكم . وان كانت عودتهما عودة للظلم والطغيان ولكن عمر مكرم كان يرى فيها أقل ظلاماً من الحكومة التى قامت قبلها ، وكان طبيعياً ان يكافئ على عمله هذا من الحاكمين . فلما توفى السيد محمد البكرى نقيب الاشراف أسندت اليه النقابة بالرغم من عدم وجود أى قرابة بين النقيين السابق واللاحق فصار اسمه يتردد على كل اللسان يشوبه الاحترام لصداقته بالحاكين بأمرهما ، ولما ثار الشعب على طغيان ابراهيم ومراد نذكر ان السيد عمر مكرم لم ينبري لقيادة الشعب بل ولم يساهم فيه بأي مجهود وذلك لانه لم يكن قد انغمس تماماً فى تيار الوطنية كما انه لم يكن ليحسر على محاربة دولة مراد و ابراهيم وهو الساعى لتثيتهما وما كان ليحسر على محاربة مراد و ابراهيم وهم الغامران له من مجدهما بالاسطان عليه من سطوتهما .

ولكن كان عمله فى ذلك الوقت الاجتماع بالشيوخ السادات والبكري

والشرفاوي كى يبسطون له طلبات الشعب عاملا على اقناع الامراء بها ساعياً لتحقيق العدل حتى اشترك في كتابة الوثيقة التاريخية التي سيأتي ذكرها فيما بعد وفيها يملئ الشعب ارادته فيتعهد الامراء بأن يعدلوا ويتعدوا عن البغى والظلم متكفلين عدم امتداد أيديهم الى أموال الناس سائرين في الحكم سيرة حسنة .

الحملة الفرنسية : لم يرعو الاميران بعد ذلك بل عاودتهما نكسة الظلم واذا ابتدئ الشعب ان يعاود الضجيج وابتدأت جموعهم ان تزرع بذور الثورة في البلاد اذ وصلت الاخبار بنزول الجيش الفرنسى في الاسكندرية فسكتت نائرة الشعب ونظر الى أميره لعلهما يكفران عن أثمهما بصد العدو المغير ، وجاءت الرسل تخبر الناس والاميرين ان العدو لم يكن في هذه المرة ككل الاعداء الذين عهدوهم فى الغارات السابقة اذ قد استولوا على الاسكندرية بلا أي مقاومة تذكر . وكان الشعب فى القاهرة كلما وصله هذه الاخبار يضطرب لا سيما بعد ان عرف ان الاميرين لما يتحركا لا نقاذ الاسكندرية بل تركاها لقمة سائغة للعدو المغير وكان كلما ذهب مشايخ الشعب الى مراد وابراهيم طالبين ان يتحرك جيش الممالك لصد الغارة قابلهم مراد بكل استهتار قائلا « سأحطم هؤلاء الفرنجة تحت سنانك الخيل » ونحت الالحاح الشديد ابدى ان يتحرك بجزء من جيشه الى الشمال وحمل جزءاً آخر فى النهر فالتقى بالعدو عند شبراخيت فى ١٤ يوليو أى بعد نزوله فى الاسكندرية باحد عشر

يوماً . ولكن كانت هذه الموقعة درساً قاسياً لمراد فتأكد انه لا يستطيع ان يحطم الا نفسه فهرب الى امبابه محصناً البر الغربي منها بشيء من الحذر والحيلة . اما ابراهيم فكان قد ذهب يحيش له الى الغرب ووقف عند بولاق ليلاتي العدو قبل دخوله القاهرة .

رجال ... ورجال : هاهم الممالك أمراء الشعب وحكامه في اضطراب عظيم فكل منهم كان قبل الحرب يسرع باخفاء جواهره وكنوزه ناقلها اياها بعيداً عن الاعين ثم ذاهبين الى ميادين القتال وعند تلقى أول صدمة يكروا راجعين ناجين بأنفسهم حرصاً على الحياة .

هاهم الممالك ، أمراء الشعب وحكامه وجنود الامن في البلاد لا يحفظون البلاد في أمن من هجوم الهاجمين ، بل يفروا غير مخلصين في الدفاع ، غير جادين في القيام بالمفروض عليهم .

وها هو عمر مكرم ، ابن الشعب وأحد أفراده يرى هذا فيعز عليه ضياع الوطن وهو ليس برجل حرب حتى يخرج بنفسه الى الميدان فينادي الشعب لحماية نفسه بما استطاع محرضاً اياه ومحسلاً له نعله يستغنى في الدفاع بنفسه عن الهارين .

وكان جواب الشعب باهراً ونبيلاً ، اذ لبي نداء الواجب فخرج كل رجال القاهرة وضواحيها ولم يبق الا الضعفاء والنساء .

نشر السيد عمر مكرم علماً كان العامة يسمونه « اليرق النبوى » ونزل من القلعة الى بولاق والناس حوله ألوفاً مؤلفه بسلاحهم الساذج البسيط

(عصى ونباتيت) ولكن بقلوب أحمى من الحديد والنار يهللون ويكبرون
باللسنة والطبول . ووقفوا وقفة المنتظر المتحفز على ضفة النيل الشرقي على
مقربة من جيش ابراهيم منتظرين ما يصنعه مراد ... الحيار .

موقعة امبابة : لم يطل انتظارهم فقد ظهرت طلائع الفرنسيين في
أربع فرق يقود احدها ديزيه وأخرى ريبنه وثالثه بونابرت ورابعة
مينو ووقفت الفرق الاربعة موقف الانتظار فلم يسع مراد الا الهجوم
مع ثمانية آلاف ولما أصبحوا على مرمى رصاص البنادق حصدت أرواحهم
حصداً فلم تنفعهم الشجاعة بل ذهبوا وفروا اذ حصروا بين ثلاث
فرق منها تعمل فيهم تفتيلاً من غير تلامس للأجسام ولا كره وفروا في
الميدان . وزحفت الفوقة الرابعة بقيادة مينو على امبابة فألقت بقلوب
الهاربين في النيل .

ماذا يفعل ذلك القلب الذي يرجو ويأمل ... قلب عمر مكرم الذي
كان يرجو في حكمه شجاعة ويأمل لها نصراً ... فيرى لاحدهما هزيمة
وفي الثاني جيناً وخوراً ، ماذا يفعل اذ يرى ابراهيم هزيمة مراد فيهرب
بلا حرب ولا قتال تاركا الشعب أعزل منكود مضطرب مروع . وقلق
الشعب وعلى رأسهم عمر مكرم وبينما هم في حيرة من أمرهم اذ تحترق
احدى سفن مراد فتفجّر وترسل دويّاً هائلاً مروعاً يرهب الشعب
فيتعالى صراخهم وضجيجهم ويمع بينهم الاضطراب ويصيح البعض فيأوى بالهرب
فينفلت من يبغي الحياة ويتبعه الباكون مشتتين الى الصحارى والقفار .

التسليم : طلع نهار اليوم الثاني على مشايخ القاهرة مجتمعين متسائلين ماذا يجوز ان يفعلوا ولما كانوا رجال علم لا حرب ولا قتال فقد قرروا التسليم وأرسلوا رسولين الى بونا برت مستعدين لاستقبال الفاتح ومستعدين لتقبل الحكم الجديد . وبعد قليل أعلن الفرنسيين الامان للهارين الفارين فعاد الكثير من الزعماء الذين هاجروا مع عمر مكرم واسكنه لم يعد معهم أمثال الشيوخ الشرفاوى والسادات .

وأيضاً رجل ... ورجال : لقد كان من السهل رجوعه ، بل كان يتمنى الفرنسيون لو كسبوا رضوخ عمر مكرم واطمئنانه لحكمهم لبعد صيته بين المصريين وسماهم بزعامته على القوم قبل دخولهم . وبالرغم من ترديدتهم أنهم يبغون صداقة أهل مصر وانهم إنما أتوا لتطهير البلاد من طغيان المماليك . وبالرغم من سماعه ان بونا برت اختاره بين العشرة الذين كون منهم ديواناً يباشر الحكم الى جانبه ، واسكنه لم يكن ينظر الى نفسه لانه شقى بنفسه في النفى والتشريد من الحُرمان والفقر ومعاناه الاهوال والشدائد بل كان ينظر الى بلاد اذ شهد أول تحركها نحو التحرر وذكر حقها في الحياة الحرة المستقلة ، فلم يجد له وسيلة الا ان يضحي براحته في سبيلها لانه كان ينتظر فرصة لا ليعود لينعم بل لتكون عودته للجهاد .

انه كان أنبل قصداً من الهاريين الكيرين ابراهيم ومراد فقد هربا لانها لا يملك الحق في العودة الى الحكم ولو كان بالامكان عودتهما

للحكم لعادا . فهما يعبدان الحكم لا الشعب وهما يدافعان عن الحكم لا الشعب . وهما هربا لان الحكم فر منهما لا ليعملا من أجل الشعب . لقد كانا يبحثان عن الحكم ليعاودا الطغيان من جديد .

عودته الى مصر : لقد تقهقر عمر مكرم الى العريش وانتظر شهورا حتى زحف عليها بونابرت في ١٧ فبراير سنة ١٧٦٩ فتقهقر الى يافا مع الجيش التركي المهزوم وبقي فيها حتى افتتحها نابليون وسلم له أهلها فأكرم المصريين منهم وكان هو على رأسهم وأرسلهم الى مصر مكرمين .

لقد رأى عمر مكرم بعيني رأسه ستة آلاف رجل يلقون في الصحراء ويطلق عليهم الرصاص فلا يبقى فيهم نفس حي ، ولقد رأى كل مدينة يهرب اليها تهارب وتستسلم لحكم ذلك الحيار ولقد رأى انه ليس بمستطيع لجيش ان يماند أو يقاوم حكم العلم والنظام أو حكم السيف والنيران ولكن قلبه لم يلن . أو عزمه الصلب لم يتفتت فعاد وهو على عزم ان يعاود النضال . واذ لم يكن هناك فائدة في اظهار الكراهة والعداوة فقد صمت وسكن ولاكنه أبى على نفسه مشاركتهم في الحكم أو ان يكون طوع أمهرم كما رغبوا . فلم يدخل الديوان ولم يسترجع مكانه في نقابة الاشراف ولا في نظارة الاوقاف التي كان يدير أمورهما من قبل . بل لقد تعفف عن ان يطالب بأمله حتى تنازل الفرنسيون عن بعضها له فعاش منها بالقليل تاركا لهم الكثير .

ثورة مارس سنة ١٧٩٨

كان تحطيم الاسطول الفرنسى فى ابو قير ثم خروج نابليون خلصة ورجوعه الى فرنسا ثم توارى الاخبار بمعاودة الترك للهجوم على مصر واشتمزاز كبير القائد المعين بدون علمه على مصر أثر كبير فى نفوس المصريين وبالرغم من نزول الانجليز الى الارض المصرية وهزم نابليون لهم قبل سفره ، فان الشعب سمع أنهم لا زالوا مرابضين فى المياه المصرية . وظهر ميل كبير للانسحاب من مصر واضحاً باتفاقه مع مراد بك على توليته على الصعيد فى ظل الحكم الفرنسى ثم ابتداء ان يفاوض الترك والانجليز على الانسحاب بشروط لا تكون مخجلة بالشرف الفرنسى فاتفقوا مع السير السدني سمث على شروط مناسبة فنقضتها انجلترا ثانية . وساء حال الفرنسيين المحصورين فى مصر سوءاً زاد فى هياج الاهلين . فالانجليز فى البحر والجيش التركى يساعده ابراهيم بك وصل حتى قرب القاهرة ومراد بك وصل من الصعيد حتى الحيزة .

كان فى عزم الاهالى ان يتكفلوا بنفقات سفر الحملة الفرنسية وابتدأت عملية الجمع غير ان كبير خيب ظنهم وفاجأهم بهجومه على الجيش التركى فهزمه محاولاً انتقاذ شرف فرنسا بعمل حربى فبدد الآمال التى كانت معقودة فى نفوس الاهالى بتخلصهم من هذا الحكم وزادها اشتعالاً رجوع كبير الى القاهرة معتزلاً بنصره بعد ظنهم ان خروجه سيكون بلا عودة وانفجرت حفيظتهم فصاروا ينادون بزعمائهم لمكافة العدو الذى

لا ينبغي فيكاكا، فاشتعلت العاطفة الوطنية في الصدور . ووجد السيد عمر
مكرم نفسه مدفوعاً لتلبية النداء فأرسل صيخته في الوادى جامعاً حوله
وابتداً يتحرك فلم يفتقر له — زم ولم تبطل له حركة وانضم اليه أمراء
المماليك بجنودهم عاملين على تحصين القاهرة واقامة المتاريس . وفوجيء
الفرنسيين العائدين فرحين بالنصر بامتناع القاهرة قبولهم فيها فأرسلوا
الرسل ليفاوضوا الشعب ليرجع عن ثورته فلم يقبل بل طلب جلاء شاملاً
عن كل الاراضى المصرية ، ولما سمع كليبر بذلك زجر وأقسم انه لا بد ان
يبقى في القاهرة ولو مع آخر جندي فرنسي . وأمر جنده بالهاب الاهالى
من سعي الحديده والنار بل أمرهم باستعمال منتهى القسوة ، فألقوا
بالنيران على المساكن واقتحموا المتاريس وأهلوا من يرغب في التسليم
أو يبغي المهاجرة فولى عمر مكرم هارباً مع بعض الاتراك وكان عقابه
ان نهب بيته وعقاره وتم استسلام الاهالى الذين كلفوا بدفع غرامة مالية
كبيرة بعد أكثر من اربعين يوماً .

فضائع : كان للفرنسيين في مصر عدة فضائع أثارت استمزاز العالم .
فقد الهبوا وقت اخماد الثورة كثير من المنازل ، وفرضوا ضريبة (غرامة)
عملوا على محصيلها بمنتهى القسوة فان عشرة ملايين فرنك ليست بقليلة .
ونهبوا بيوت الامراء المصريين المهاجرين ، فلما ان قتل كليبر أعدموا
القاتل بمنتهى الوحشية مستعملين « خازوق » العصور الوسطى بل وقتلوا
أربعة آخرين لمجرد الشبهة او الظن بعلهم خبر الجريمة . رافعين الرؤوس

الاربعة المقطوعة على أعمدة لتكون عبرة أخرى مما أثار اشمئزاز القوم ، بل فرضوا غرامة أخرى كعقوبة وثبتوا مراد بك على حكم الصعيد لا لاخلاصه لهم ، بل لانه لم يلجى رجاء الشعب ولم يزحف الى مصر لمعوتها ، وكانت رؤيا الشعب لتقطع الحلبي والتشجيع بالاربعة الآخرين وغرامة الخمسة ملايين فرنك الاخيرة باعثة على هرب الكثيرين . وكان الفرنسيون يشعرون في عهد « مينو » بخرج مركزهم فاندفعوا في شهوة الشر ليشغلوا أنفسهم وليحصلوا على أكبر قسط مالى يخفف عنهم ضيقهم ويعوض عليهم خسارتهم .

نهاية الحملة : في مارس سنة ١٨٠١ نزل على مقربة من الاسكندرية خمسة آلاف انجليزى كانوا مقدمة لجيوش أخرى تجمعت في آسيا الصغرى وفي الوقت نفسه تجمعت جيوش الترك في الشام فبلغت ثلاثين ألفاً وبدأت تتحرك نحو القاهرة .

وابتدأت تتلاحق الهزائم « بمينو » فعاد من الاسكندرية الى مصر محصناً اياها وخلفه الانجليز يزحفون متجهين الى القاهرة . وكان الاتراك قد اقتربوا هم أيضاً من الجهة الشرقية وحاصروها فاجأ الفرنسيون الى المفاوضة للتسليم وتمت المعاهدة فرحلوا من رشيد والاسكندرية في منتصف سبتمبر من ذلك العام .

وبذلك عادت مصر ثانية الى حكم تركيا بعد ثلاث سنين وشهرين وعاد مع الجيش التركى عمر مكرم ومن هرب معه كالسيد المحروقي وغيرهم

وكانت عودته ودخوله الى القاهرة باستقبال عظيم وفي نفس اليوم الذي شيعت الحملة الفرنسية آمالها في مصر .

دروس الحياة : كانت لثلاثين التي قضتها الحملة في مصر أثرا بارزا في نفوس المصريين ، ثم خرجت الحملة بعد ان قوضت آثار الحكم القديم وخلقت في نفوسهم شعوراً بالاعزة القومية تعلموها من خيبة الامل في الوجهات الثلاثة الآتية :

اولا : عجز السلطان عن محاربة نابليون ولجؤه لمساعدة الانجليز دائماً فهدم اعتزازهم بدولة آل عثمان لما رأوا ما عليها من ضعف .

ثانيا : هرب الامراء المماليك بعضهم شرقاً وبعضهم غرباً لا يثبتون في موقعة ولا يحرسون على جهاد بل كان همهم الاكبر البحث عن الحكم والسيادة أين كانت وظن الشعب أنه لو كانت أمتهم نجدة من ابراهيم أو مراد وقت ثورتهم في القاهرة لارغموا الفرنسيين على الخروج .

ثالثا : مهما سمى الحكم الاجنبي ومهما امتلىء عهده بالاصلاح والتقدم فانه لا يخلو من الظلم والقسوة والشناعة ولهم في الفظاعة الفرنسية ما ينسيهم كل الاصلاح الذي أتوه .

فلما ان عاد عمر مكرم وأصحابه عجبوا للتغير الكبير الذي طرأ على التفكير المصري فبدأت من ذلك العهد صورة جديدة ، ولكن هناك أيضاً الخليط العجيب الذي يسمى بالحيش التركي وهو خليط من أراك واكراد وسودانيين وارنؤود وشوام ومغاربة فرحوا بطرد

الفرنسيين فطالبوا بالثمن من الغنائم كمادة محاربي القرون الوسطى ، فكانت الايام التي تلت خروج الحملة من أدق الايام وأخرجها وأشدها . ولا سيما ان حسين باشا قبطان العثماني كان مشغولا بالقضاء على المماليك الذين لجأوا الى الانجليز الرابطين في المياه المصرية وعرفوا نيات العثمانيين تجاههم فأدركوا ان لا مسالة بينهما بعد الآن حتى أتى حكم خسروا بعد سفر الصدر الاعظم التركي وقائده حسين باشا قبطان . وكان خسروا ضعيفاً متراخياً مهملاً مدلاً ولا كنهه أمام عداء المماليك له لم يقو الا حربهم فعاني منهم الامرين وزاد الطين بله شراسة جنده الذين هزموا عند ارمونت ورجعوا مولين الادبار الى القاهرة والمماليك من خلفهم يزحفون مطمئنين الى ان الشعب قد عهد حكمهم وفضله عن شراسة هذا الخليط العجيب من الجنود . وتقاتل الهزائم بجنود خسروا حتى أرسل لمفاوضة الامراء المماليك الذين لم يقبلوا الحكم تحت الراية العثمانية بل طلبوا استقلالهم بالصعيد (على الاقل) ووالوا الزحف ووقع خسروا في مأزق حرج لان الجنود المهزومة رجعت لتطالبه بأجرها والحزينة خاوية والحرب تتطلب نفقات للذخيرة والاسلحة فزاد لومه على الجنود المهزومة فثاروا عليه فهرب من القاهرة تاركا اياها كالبركان المضطرب وكان أشد الطوائف ثورة في الجيش الجنود الارناؤود وكان على رأسهم طاهر باشا ومحمد على ، فلما هرب خسروا لم يقبلوا الا ان يكون الحاكم منهم وأرسلوا الى الاستانة لطلب الموافقة ، فهاجت عليهم طائفة الانكشارية الذين

عدوها سبة لهم ان لا يكون الحاكم منهم وقتلوا طاهر باشا ودعوا خسروا
للعودة فتحصن الارناؤود في القلعة وعلى رأسهم قائدهم محمد على باشا .

محمد على في الميدان : كانت القاهرة كزوبعة في ذلك الوقت فرأى

محمد على ان يتفق مع الامراء المماليك الذين وصلوا الى القاهرة ييغور
الهجوم عليها لانه لم يكن بوسعه ان يطمئن للانكشارية بعد ان أغضبهم
وأغضب الدولة العثمانية بحربه لهم . فرجعوا الى مصر حاكمين اياها مشتركا
معهم محمد على بعد ان طردوا الانكشاريين وأسروا خسروا وسجنوه
بالقاهرة ، فأرسل الباب العالي والياً آخر فقطله ابراهيم بك والبرديسى
وحليفهما محمد على وأنفوا كل الجند الذين استصحبهم معه وعزموا على ان
يتبعوه بالالفى الذى هرب منهم ولم يهتم محمد على بالبحث عنه . فاتهم كل
منهم زميله : محمد على بالتواني والانعزاء عن هـرب الالفى والبرديسى
بالخيانة وسوء النية وكانت النتيجة ان حرض محمد على الجيش على المطالبة
بأجورهم فطالبوا البرديسى الذى فرض الصرائب ليدفع منها ، فهاج ضده
الاهالى وساعدهم محمد على بجنده فهرب البرديسى ثم تبعه ابراهيم هارباً
أيضاً الى الصعيد فذهب محمد على منازلهم ومنازل سائر الامراء المماليك
الذين ولوا هاربين ثم عرج على القلعة وأخرج خسروا من سجنه ونادى
به والياً على مصر حتى يعين السلطان من يريد ولكن كانت النتيجة الحتمية
انه أرسل الى حيث لارجعة ثم كان خسروا آخر تركى عين والياً على مصر
لان محمد على قضى على حكمهم نهائياً .

عمر مكرم في سنوات الاضطراب : كان عمر مكرم في كل هذه المدة مستكناً خالداً في منزله الى الهدوء بعد ان رجع الى نقابة الاشراف لا يظهر أمام الشعب ولا يظهر أمام الولاة الا القليل ، فقط لما يستدعيه مركزه بحكم رأسته لنقابة الاشراف . بل انه كان يتباعد عن الاتصال بالصدر الاعظم ثم خسروا ثم اعتزل الحوادث أيام ثورات الجند فقد رأى الحال تفتت الكبد وتدمى الفؤاد حتى تحرك الشعب اثر الاضطرابات الكثيرة اثر خروج ابراهيم بك والبرديسى من القاهرة ينادى بحكومة من الشعب وللشعب فسمع النداء وخرج من عزلته ليطالب بمطاب الشعب فعاد بذلك معاودة فعلية الى الميدان حتى اختارت الدولة العثمانية احمد خورشيد والياً على مصر وقد كان حاكماً للاسكندرية الذى كان كل همه ان يدبر المؤامرات للقضاء على الامراء المماليك مظهراً كل العناد ومغمضاً عينيه عن كل ما حوله اذ ظهر البرديسى ثانية فى الارياف وعاود الالفى انتظاره فرصة للهجوم على مصر وكان كل منهما لا يعمل لنفسه فقط فقد كان الاول يعمل لفرنسا والثانى يعمل للانجليز .

خورشيد فى الميزان : كان خورشيد فى القاهرة شبه محصور وكان لكل أمير من الاميرين الملتفين قرب القاهرة (البرديسى والالفى) الحرية فى ان يجمع ضرائب من المنطقة التى يحتلها فكان على خورشيد للحصول على المال ان يعتمد على أهـل القاهرة فقط . ولكنه اشتط فى الجمع حتى وصل به الامر الى الارهاق بل وتعالى أيضاً حتى باع أولاً بيوت

وتمتلكات الامراء . ثم قبض على نسائهم ليفتدوا أنفسهم بالمال واضطروهم ان يبعن حليهن وكان لقبضه على النساء أثر بالغ في النفوس وزادها مرارة ان أمر الاهالي بدفع ضرائب السنة مقدماً ، ثم ظن ان رؤساء الاقباط يستطيعون مالا يستطيعه غيرهم ففرض عليهم اداء قسط كبير من المال ، بل وأرغمهم على ان يدفعوا أموالا ليسوا بملزمين ان يدفعوها وقسطاً فوق طاقتهم ان يدفعوه . واشتط بالمطالبة وتمكن بهذه الوسيلة الشديدة ان يجمع مقداراً من المال مكنه من تسير الامور بعض الشيء ولكنه كان يبغي غناه أيضاً ففرض ضريبة أخرى تلتها ضريبة حتى أزعج العوام وازداد ازعاج الاقباط وبدأ الاضطراب يدب فيهم ولما شعر بخرج الحالة رفع الضرائب عن العوام والغاضبين وكلف بها الاقباط المتململين ثم أشرك اليهود . وكان يستخلص الاموال بكل قسوة ووحشية وبالضرب والسجن والتعذيب .

مشاكل ومشاكل : حاول خورشيد ابعاد محمد علي من طريقه فأرسله على رأس بضعة آلاف من الجنود لابعاد المماليك الى أواخر الصعيد فأبعدهم لمدة الشتاء مع جنوده اللبنانيين (الارناؤود) وفي الوقت نفسه عمل على التقرب من أعيان المصريين وأرسل في طلب مدد عثماني قبل رجوع محمد علي وجنوده . وكان حضور هذا المدد وبالا عليه فقد كان يسير سير الفاتحين لا يبغي الانهياً وغنائم فأنار الشعب وزاد ثورة الشعب مكر محمد علي به فسعى لابعاده عن مصر باصدار مرسوم بتعيينه

على جده مع اعطائه لقب باشا ولكن الارناؤود اصروا على عدم سفر قائدهم الذى تظاهر بمزمه على السفر وفضل الشعب المناداة بمحمد على والياً على مصر ليخلص من حكم خورشيد وكان عمر مكرم هو أول داعيه لتوليته ثم ذهب اليه مع الشرقاوى والبسماه ملابس الولاية في ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ فأصبح بذلك حاكماً على مصر بارادة مصر بالرغم من ان السلطان لم يوافق ولم تكن له رغبة في الموافقة ولكنه عجز عن مقاومة رغبة الشعب الذى حاصر خورشيد في القلعة حتي حضر أمر لخورشيد بالتسليم وترك الحرية للشعب ليختار والياً له حسب رغبته .

حكم محمد على : كان امام محمد على ان يتخلص من القوى المستعدة لمحاربه خارج القاهرة بعد ان استسلم خورشيد وزل من القلعة وكان كل اعتماده على معونة السيد عمر مكرم الذى ساعده على الفتك بالمماليك في القاهرة يوم وفاء النيل باعداد شرك لهم ثم أغلق الابواب عليهم والفتك بهم في الشوارع . وتلفت بعد ذلك الى تنظيف الاقاليم فطرد البرديسي الى الجنوب والاتراك الى الشام ، أما الالفى فقد تحرك الى دمنهور ليستولى عليها ولاهية دمنهور الحرية ذهب عمر مكرم اليها محرراً أهلها على المقاومة حتى قيل أنه كدس فيها ما يكفى من السلاح والغذاء لثباتها في الحصار سنة وتحرك الباب العالى فناصر الالفى تحت تأثير ضغط الانجليز وهوريثهم فأصدر فرمان بنقل محمد على الى سلانيك فرفضه السيد عمر مكرم وزعماء الشعب فحضر الاسطول التركى وزاد الالفى الضغط

على ذمنهور ليستولى عليها والسيد عمر مكرم يشجع أهلها ويتصل بهم ليقويهم على الثبات ولكن الله أراد أن يوقع الخلاف بين المماليك فاضطر عندما طالّت المدة أن يفاوض الترك محمد على ليتزكوه في ولاية مصر ورجع الاسطول فمات البرديسى غما لضياح الغرض وهاجر الالفى حزينا الى الصعيد حيث مات فخلص الجو لمحمد على .

الحملة الانجليزية : وفي مارس سنة ١٨٠٧ وصلت عدة سفن انجليزية الى الاسكندرية وانزلت جنودها التي استولت على الاسكندرية وسار نحو رشيد . أما محمد على فقد كان في اسبوط يقضى على فلول جيوش البرديسى فعاد سريعا لما علم بخبر الحملة الانجليزية وأسرع الى رشيد . وكان عمر مكرم بالقاهرة يحرض الناس على مناصرة محمد على والقيام لانقاذ رشيد من أيدي الانجليز والاستعداد للخروج للحرب بأنفسهم فخبب ظنهم محمد على ان طلب منهم نقوداً فقط وردهم حيث ذهب وحده فهزم الانجليز مبعداً الشعب عن التدخل بعد الآن . مما صدم شعور السيد عمر مكرم وخبب أمل الشعب ، وبالرغم من ان الشعب قد تعود على خدمات الولاة فان عمر مكرم لم يكن يفكر في ان يلقى شيئاً من هذا من محمد على الصديق الذي بذل نفسه وماله من أجله ومن أجل تثبيت ولايته وانقاذه من ورطاته وكان هذا أيضاً داعياً ليأس عمر مكرم من محمد على وانصرافه عن مجلسه غير انه سكت عنه وظل راضياً به لاستقرار الامن في عهده وتفضيله لعهد محمد على عن العهود التي سبقتة . وابتدأ محمد على يشعر بعدم وجود

رقابة عليه فراد في توسيع نطاق حكمه المطلق فزادت الجفوة بينه وبين عمر مكرم فامتنع عن زيارته ، اذ فقد مودته . ثم زاد الجفاء فأصبح السيد الوقور عمر مكرم لا يمتنع عن ابداء السخط على مسلك محمد على باشا على مسمع من الناس فكان يستنكف ظلم الجنود للناس ويشكو الضرائب وينتقد خطط الباشا حتى زادت الجفوة عامين طويلين حتى أدى الامر بهما الى العداوة الصريحة .

آلام الشعب وآلام عمر مكرم : حطم محمد على مقاومة الثائرين في أنحاء الاقاليم وتفرغ للإصلاح الداخلى بتنظيم الادارة واصلاح المالية . فانتقل من مواجهة الاعداء الى مواجهة الشعب ، فاذا كانت البلاد خلصت من الامراء فانها ابتدأت ان تتحمل الضرائب التي أثقلت كواهلهم وكانوا ينتظرون ان يزول مع انقضائها لان محمد على نوى ان يجعلها أساساً للحكم . وزاد الطين بلة ان الدولة العثمانية أرسلت لمحمد على ان يخمد ثورة الوهابيين وكان لا مفر له من ان يصعد بالامر . حتى لا تضيق منه مصر بعد كل هذا الذى بذله . فأراد ان ينظم الضرائب ويكسبها صفة الاستمرار والدوام ولم تكن الضرائب موزعة توزيعاً عادلاً ليرضى عنها الشعب اذ كانت تعفى كثيراً من الاغنياء وتتصب على عاتق الفقراء .

وزاد ألم الشعب ان أحد كبار حفظة الامن قبض على شخص من كبار العلماء والقاء في غيابة السجن من غير ان يعرف تهمة التي

سجن من أجلها ولما كان مثل هذا الحادث قد سبب ثورة الشعب أيام على بك الكبير .

مجمعت آلام عمر مكرم من أجل نفسه مع آلامه من أجل الشعب فهبت العواصف على قلبه كما هبت عواصف الاستياء على القاهرة فابتدأت الاجتماعات تعقد في الأزهر وفي منازل الكبراء . وكان عمر مكرم يعرف في نفسه الصلابة فلما ناداه الشعب تريث قليلا ولكن الحاح الشعب أرغمه على ان يترك تريثه فجعل يصرح بأشد النقد لسياسة الباشا وأمضى الشعب على عريضة قدمها اليه . وعرف محمد على ان الامر خطير فأرسل الى زعماء الشعب لمفاوضته فأوقع الشقاق بينهم اذ قبل البعض المفاوضة ورفض عمر مكرم أى تسليم أو مفاوضة الا بعد التسليم بأحقية الشعب في رفض ما لا يشاء من الضرائب أو يحكموا بغير قانونهم الذى اكتسبوه بثوراتهم المتوالية ، وذهب بعض الشيوخ منهم الدواخلى والمهدى لمقابلة محمد على فاستألم اليه فرجعوا يلومون عمر مكرم وبذلك تمكن الباشا ان يفصل بين عمر مكرم الذى كان يدافع عن عقيدة وثبات ويعارض من أجل الحق ، وبين العلماء والشيوخ الذين يحقد بعضهم على عمر مكرم ويغيرون منه وبعضهم استألم محمد على بلباقته وكان لتصرفه هؤلاء الكارهين والذين استألمهم الباشا ، أكبر العوامل لنجاح الباشا في ابعاد الشعب عن حق ابداء الرأي فى حكم البلاد .

تهديد ووعيد : ظل السيد عمر مكرم على رأيه رافضاً ان يذهب الى

محمد على لمفاوضته في أمر يرى انه من حق الشعب اذ لا حق له في تغيير نظام الضرائب . وربما يكون قد تجاوز حدود الاعتدال في أثناء حديثه ، بل قيل انه كان يلح أحيانا ويصرح أحيانا أخرى باستعداده للدفاع عن حقوق الناس بالقوة ولو أدى ذلك الى ثورة عامة يعود فيها شعب مصر الى حماية حقوقه بقوة ساعديه متشبثاً برأيه القائل ان مصلحة البلاد تتطلب وضع مبدأ ثابت وحد فاصل بين ما يجب للدولة وما يجب عليها . لان الباشا اعتد — نذر بفرض الضرائب بالضرورة الملحة فلما ان ذهبت الضرورة ومرت لا موجب لابقاء الضرائب على ما هي عليه ، وانتمس الباشا كل طريق يثنى به عمر مكرم عن رأيه تارة بالرجاء وأخرى بالوعيد ومرة بالملاينة والبذل وأخرى بالتهديد حتى قيل انه عرض عليه اثني عشر الفا من الجنهيات مع اربعون جنيتها يومياً فأصر على رأيه .

والكن كان هناك الشيوخ المنافسين لعمر مكرم يحاولون هدم سمعته وتحريك محمد على من جهتهم بأساءة سمعة عمر مكرم عند الناس باختلاق المطاعن والمبالغة فيها . حتى كان ان طلب محمد على زعماء المصريين ان يمشوا على قوائم حساب ترسل للباب العالي يشكو فيها محمد على من خواء الجزينة المصرية فمضوا جميعاً الا عمر مكرم الذي صرح الباشا بأن الضرائب التي تجب تكفي لانعاش البلاد فتطور الامر واعتقد الباشا ان الخلاف بينه وبين عمر مكرم ليس على أمور تتعلق بصالح الشعب بل هو خلاف شخصي يمس شخصه وشرفه وأرسل لعمر مكرم انذاراً أخيراً يطلب منه

الحضور اليه الى الديوان فرفض الذهاب اليه قائلاً ان أراد الباشا مقابلي فليزل الى من القلعة . فعدها الباشا اهانة جديدة مست شخصه ولاكنه كظم غيظه ونزل الى بيت ابنه ابراهيم باشا فوجد جميع الزعماء في انتظاره الا عمر الذي اعتذر بمرضه فثار الباشا وأعلن خلعه من نقابة الاشراف ثم نفيه من القاهرة الى دمياط .

النفي : أوهم محمد علي الزعماء انه قد يئس من اصلاح عمر مكرم وأدخل في روعهم ان حكمه بالنفي على عمر مكرم هو حكم عادل وعقاب عادل . وقد كان محمد علي يعرف تماماً باختباره الطويل أخلاق هؤلاء الشيوخ فقد كانت ثورتهم اولا ضده مع عمر مكرم بل وقبله ليس من أجل الشعب بل خوفاً على مصالحهم وأموالهم ، فلما ان اطمئنوا على أموالهم خذلوا عمر مكرم الوحيد الذي كان لا يدافع الا عن صالح الشعب لذا فقد كان محمد علي يعرف تماماً كيف يرضيهم فأعطى نقابة الاشراف للشيخ السادات وقسم غنائم زميلهم النبي — ل يبنهم يقتسمون منزله وأمواله وأملأه وأمتعته ، وبذا كان ابعاد عمر مكرم ونفيه احدي خطوات محمد علي في سبيل السير نحو حكم البلاد منفرداً وابعاد الشعب عن التدخل في ادارة شؤون الحكم .

لقد كان عمر مكرم يقدر تماماً مسؤوليات الحكم لانه كان شريكا فيه وكان يقدر ان الصعوبات الحالية أسقطت كثيراً من الحكومات فكان يعطى للباشا بعض الحق ولاكنه كان كزعيم للشعب لا يقبل ان يتلاعب

لوالى بمصير الشعب ولا ان يتحكم فيه . وقد كان في بعض فترات تفكيره في حيرة لذلك . لذا فقد لا يكون من المغالاة ان نذكر انه سر للنفي لانه بنقذه من هذا التفكير المضني كما ان محمد على كان يقدر خدماته السابقة خدمات الصديق الخاص المضحي والكنهه ما كان يريد نفي الصديق بل كان يبغي نفي التأثير . لانه بعد ان نفاه عزى أهله وواساهم .

واجتمع الناس عامة وزعماء ليوذعوا الزميل الشيخ النبيل في اغسطس سنة ١٨٠٩ في الثالث عشر منه ولم يملكوا جميعاً دموعهم حزناً على فراقه وتحركت السفينة تحمله من بولاق الى دمياط حيث قضى أربع سنوات في كثير من الضجة والضيق ، ثم نقل الى طنطا وضيقوا عليه حتي صار أشبه بالسجين ، فالجند تلازمه وتمنع اتصاله بالناس مقيدين حريته ثم رجع واعطاه بعض الحرية حتي انه أظهر استعداداه لاصدار العفو عنه لو أظهر ميله للخضوع أو سمع منه كلمة رجاء .

ولكن السيد عمر مكرم أبى ان يطلب عفواً واستعطف ان يشكو عسراً أو ضيقاً حتي بقى في طنطا خمس سنوات أخرى حتي أتيح لابراهيم باشا ان ينال النصر تلو النصر على الوهابيين حتي دخل عاصمتهم وكسر شوكتهم فلم يسعه الا ان يرسل رسالة يخفي فيها ذلك الحاكم الذي عابه في مواضع الضعف فيه ولم يكتم شعور الفرح في نفسه لما لقيت مصر من مجد على يديه فأرسل هذه التهنية التي قابلها محمد على بالعفو بل أرسل اليه خطاباً رقيقاً عاد بعده عمر مكرم في يناير سنة ١٨١٩ وارتجت

القاهرة اذ خرج عامة الشعب لمقابلته غير انه اختار ان يعتزل في داره متحاشياً الظهور اذ كانت السبعون سنة التي أدرکها تؤثر في عظامه فلا يقوى على ضجة المحافل ولا المجتمعات .

الباحثين عن الذهب : بعد نفى عمر مكرم بادر الشيوخ الذين فرحوا لنفى عمر مكرم المنافس لهم بالمطالبة بثمان مئاة مساعدتهم للبasha وخذلانهم للشيخ النبيل فقال الشيخ السادات نقابة الاشراف والشيخ المهدي نظارة وقفى الامام الشافعى وسان باشا مع هدية مالية تقدر بألف جنيه . ونال الدواخلى القربى والحظوة والجاه والسلطان . ثم اجتمعوا وكتبوا شكوى للباب العالى يشكون فيها عمر مكرم لتكون الشكوى مبرراً للنفى الصقوا فيها كل التهم التي هو بريء منها وأمضوها وأرسلوها .

غير ان تدبير الله لم يتركهم طويلاً فقد ماتوا الواحد اثر الآخر ولم يتمتعوا بالاموال التي سلبوها اذ استرجعها محمد على بعد وفاة كل منهم تاركا القليل لورثتهم بل وزاد الامر بالشيخ الدواخلى اذ أدرکه النفى قبل ان تدركه المنية .

النهاية : لم يكن حال الحكم بعد عودة السيد عمر على ما كان عليه قبل نفيه فان البasha قبل نفيه لعمر مكرم لا يزال يؤثر الحذر والحيطه في الافدام على خططه واصلاحه ، خشية من ثورة الشعب على النظم التي لم يألفوها ومجاملة للزعماء والشيوخ العشرة المكونين لديوان الحكم المسموع الكلمة من البasha والشعب .

ولكن نفى السيد عمر أزال من طريق الباشا الرجل الوحيد الذى كان يعارضه عن مبدأ وعقيدة ، وترك خلفه قوماً كانوا لا يعارضون الا لصالح شخصى واستطاع الباشا ان لا يصطدم بمصالحهم فضمن سكوتهم ورضاهم ، بل غمرهم باحسانه وفضله فصاروا أطوع له من بنائه .

وكان محمد على قد خلا له السبيل بعد ان خرج من حروبه منتصراً فالتفت الى اصلاحاته الداخلية غير محتاج لشيء من الحذر فأقبل على اصلاحاته غير ناظر الى الشعب ولا مقدر لآماله وقد تمت له السيطرة على كل أمور البلاد وأصبح حكمه مطلقاً اذ توفي كثير من الزعماء ومنع اجتماعات ديوان الحكم فاجبه به الى وجهة لا يمكن الوقوف في سبيلها .

وأقام السيد عمر مكرم في بيت منعزل عن المدينة اتخذ في مصر القديمة . اذ كان شخص مثله قضى حياته في ضجة الثورات وصخب الحوادث والنفي والتشريد يحتاج الى الهدوء والدعة .

ومضى الباشا فى سياسته المالية لا يخشى على سياسته من معارضة أحد وكانت الظروف تضطره لجباية كثير من الاموال فشدد في جمعها حتى انه قرر ضريبة على المساكن والمنازل ولم تكن معروفة من قبل فتركت أثراً سيئاً فى نفوس الفلاحين . وترك الكثيرون منازلهم ليسكنوا فى الخلوات بقرب حقولهم . فلما جاءت سنة ١٨٢٢ فى ٨ مارس منه وصلت الى الاسكندرية الاساطيل التركية طالبة مؤونة وذخيرة لتخدم ثورة جزيرة كريت فزاد محمد على احتياجاً لفرض ضرائب جديدة فقاومه

الشعب رافضين الدفع وهاجت القاهرة ولجئت الى الشيخ محمد العروسي شيخ الازهر نجيب آملهم فيه فالتفتوا الى الشيخ الذي عودهم ان يستمع لشكايتهم وعند ما بلغ محمد على هتاف الشعب باسم عمر مكرم أسرع وأمر بنفيه ثانية ليتدارك الامر .

أمر لم يتحقق منه : قيل في أحد المراجع وهو « سيرة السيد عمر مكرم » للاستاذ فريد ابو حديد ان عمر مكرم نفى الى طنطا ومات هناك . وقيل في مراجع أخرى انه لما وصله أمر الباشا رفض قبوله فقتله الحند لعصيانه ومقاومته تنفيذ أمر النفي . وان كان هذا الامر أكثر رجوحاً لوجود قبره بمصر (بقرافة المجاورين) .

كلمة تقدير : ان كان لنا ان نبرز ناحية خافية في سيرة عمر مكرم فهي انه الزعيم المسلم الوحيد في ذلك الوقت الذي قدر وحده الامة فعمل على توحيد عنصرها ، وقتل كل دعوة نادوا بها للتفريق بين أقباطها ومسلميها . بل انه كفرد دافع عن مصالح الامة كمجموعه فقد كان ملزماً ان يدافع عن الاقباط كجزء من هذه المجموعة وكنصر عامل من هذه المجموعة التي أخلص لها ، وظهر هذا الامر جلياً في حكم خورشيد الذي اضطهد الاقباط اضطهاداً بالغاً حتى انهم هربوا من وجهه تاركين أموالهم ومساكنهم ونسائهم فاستولى خورشيد على أموالهم وأمتعتهم والقي القبض على نسائهم ليقتدوا أنفسهم ، وكان هذا الامر من أفضع الاعمال التي أتتها فسارع عمر مكرم لنجدتهم وآوى أكثرهن في منزله بل

وحرّض الشعب لمحاصرة منزله لحمايته من غضب خورشيد وقد كان على استعداد ان يعلنها حرباً طاحنة ضد الوالى الذى لم يرعوى حتى رأى عمر مكرم ان يخلص الشعب من مثل هذا الوالى بلا حرب ترهقهم أكثر وأكثّر فالبس محمد على خلع الحـكم ليخلصهم من هذا الظلم .

هذه الناحية مع الاسف الشديد لم يقدرها مؤلف حتى الآن فلعلنا أنصفناه بعد ان يننا من هو وعلى أي خلق كان .



ابراهيم الجوهري

و

جرحس الجوهري



المعلم جرجس الجوهري

ابراهيم الجوهرى



نشأته : لم تقلح محاولات الكتاب الذين اهتموا بتاريخ حياة ابراهيم الجوهرى أو جرجس الجوهرى أخوه فى العثور على التحقيق على تاريخ بلادهما أو ميلاد أحدهما .. فقد عرف عنه انه تربى تربية عادية ، اذ تلقى الحساب والقراءة على يد (فقى القرية) الذى لم ينس ان يلقنه (صورة الفدان) . واذ خرج من مكتب القرية وقضى حدائته فى التعليم انتقل الى عمل كتابى لدى احدى الممالك ، وقد كان عمله يدر عليه ايراداً بسيطاً ما كان ليغيره على البقاء ازاء غطرسة المملوك الذى يستغله فترك العمل لديه وبقي مدة طويلة خالى الوفاض . وما ان ينس من العثور على عمل معتمداً على نفسه عرض أمره على البطريرك الذى أعطاه كتاب توصية للمعلم رزق . وما ان رآه المعلم رزق وقد كان رئيس الكتاب وقت ذاك حتى عرض عليه ان يكون كاتباً خاصاً له .

دخول السياسة فى حياته : كان يحكم مصر وقتذاك على بك الكبير أحد كبار الممالك حكماً شبيهه بالصلاحيات ان لم يكن يصلح تماماً وان لم يكن يخلو من كثير من الدسائس التى لم يبال بها على بك حتى كانت النتيجة المرتقبة ان ذهب الى الشام ليفتح بعض بلادها واذ وزع بعض جنده

هناك وعاد بالبعض الآخر المنهوك لاقاه أحد قواده محمد بك ابو الذهب
 بجنود جمعها وحرضاها على واليها فقتل على بك تحت سنايك الحيل وسقط
 أثر خيانة قائده له فرجع الاخير ليمالك ويحكم وما كان ليرضى بالحكم
 الا بعد ان يحو كل ما يمت لسيدته بصلة فأخرج كل من عينهم من قبل
 وبالطبع لم ينس المعلم رزق فقال بعضهم انه مات مقتولا وقال البعض انه
 طرد فقط ثم نفي الى منفى بعيد .

ولما تلفت حوله لم يجد أحدا ليحل محل المعلم رزق (المقتول أو
 المطرود لسنا ندرى) فترك هذا المركز خاليا وعهد للمعلم ابراهيم بالقيام
 به مؤقتا . ولكن محمد بك ابو الذهب لم يعش طويلا ليحكم فرجع
 الى الحكم ثلاثة من زعماء المماليك يكونون حكماً ثلاثياً وهم ابراهيم بك
 ومراد بك واسماعيل بك الذي هرب تاركا الحكم الثلاثي يتحول الى حكم ثنائي .

في الرئاسة : خالص الامر بعد هرب اسماعيل بك لابراهيم بك
 ومراد بك واهتم ابراهيم بك بالامور المادية كي يسد أعوازه وأعواز
 جنودهما وكان لا بد له من فرض ضرائب كثيرة وكان لا بد له من
 جامع حازم للاموال يسد عوزة فعين ابراهيم الجوهرى اذ لم يكن هناك
 من ينافسه لهذا المركز . ولم يكن هناك في الميدان أ كفىء منه ولكن
 ابراهيم لم يكن ينوى ان يأخذ الناس بالشدة التي ينتهيها الحاكم بل
 عمل جهده ان يوفق بين طبيئته ولينه وبين أمرهما مضحياً بالكثير من
 أمواله الخاصة . وبلغ ابراهيم الجوهرى مركزاً عظيماً أيام حكمها حتى قلد

رأسه الكتاب وهي ما تقابل رأسه الوزراء في وقتنا الحالي .

ولقد كان مركز ابراهيم الجوهري في رأسه الكتاب من أخرج المراكز فقد كان الحكم الثنائي حكم فوضى وقلق يمتلئ بالدسائس حتى يفيض . وكانت الكوارث يتلوها الحروب فحروب عليهما وحروب بينهما . اذ كان أحدهما يغاضب الآخر فينفصل عنه ليخرب ويدمر ويحرق ثم يعاودان الصلح لينفصل الزميل الآخر ويعاود التدمير والحرق . وكان الجوهري ملزما ان يلاشى التأثير السيء الذي يتركه الحاكم حتى لا يمل الشعب دفع الضرائب ولا يمتنع . كما كان ملزما ان يرضى كل زميل غاضب ببعض المال كي يرضى ، فكانت كل الاعباء المالية تلقى على أكتافه عليه ان يسوس الشعب كما يسوس الساسة علاوة على جمع الضرائب وموازنة مصروفات الدولة وحسابها .

ولما ان اشتد الخصام بين الشريكين وطال بينهما الخصام اضطر ابراهيم الجوهري كي يسافر الى الصعيد ليلقى مراد بك ويرضيه كي يرجع الى شريكه . واذ كان كل من يعاونون الجوهري اما من جهلة الممالك أو حياة الاتراك . فقد أخطؤوا أو زادوا قسوة في الجمع اذ كان الجوهري غائبا ، فضج الناس ضجيجا لم يسبق لهم مثله وكان ابراهيم بك مهتما بجمع جنده خوفا من مراد بك زميله ان يفاجئه واستولى على كل ما في الخزانة ليعطيه جنوده . فزاد فراغ الخزانة قسوة الجاه فزاد ضجيج الشعب فتحركت دار الخلافة في تركيا رغم الخطر الروسي . فجاء اسطول

وجيش بقيادة (حسين باشا الجزائري القبطان) فهرب ابراهيم بك
ليدحق بمراد بك ، واذ كان الجوهرى بالصعيد من قبل فقد وجد من
الخير ان يبقى .

اضطهادات حسين قبطان : لقد حضر قبطان الى مصر ليجد الخزينة
خاوية تماما ، ولما كانت الحملة الى مصر لم تأتى الا للتأديب لا لتثقل كاهل
تركيا فقد كان طبيعياً الزام مصر بمصاريفها أو على الأقل الحصول على
تعويض تأديبي . ولكن أين للخرزينة الخاوية ان تأتى بمال فتحوّلت
أنظاره الى الشعب ... ودائماً الشعب . وفرض ضرائب واشتط في فرضها
بل لجىء لكثير من الحيل والاخاديع ليحصل على المال وأصدر
كثير من القوانين خصيصاً ليحصل على المال حتي امتلىء الجند وأرهق
الشعب ولكن هناك جيبه الخاص يحتاج أيضاً للامتلاء .. وكان هناك
مجال عقله يتسع لبقية من القوانين الظالمة ، فأرهق الشعب الذى احتار
أين يولى وجهه الآن . لقد اشتكى من ابراهيم بك ومراد بك لتركيا
فلمن يشتكى من تركيا ؟ وكان لحالة الشعب النفسية أكبر الأثر في ان
تحولت الى كره شديد للحاكم السابقان .

ولما أدركوا الجوهرى بتفكيرهم انقسموا الى فريقين ، البعض
يفترى عليه وينسب الشركة اليه اذ كان هو الجاني والمدير والآمر الظاهر
والبعض ينصفه ويدافع عنه بوجوب قيامه بالعمل الملزم به كموظف
مسئول . وان دواعى الامانة في العمل تلزمه يحسن القيام بالعمل ،

وتطاول الامر بين الفريقين ، واذ كان معظم المفترين عليه من الغوغاء والمتعصبين فقد تسرعوا وقاموا بتفتيش بيته الذى تركه ونهبه وكانهم ذاقوا للنهب لذة فقد خرجوا من بيت الجوهري ليتبعوه بيوت الاقباط «^١» المجاورة ثم انتقلوا الى كل بيوت الاقباط في القاهرة يسلبون مالها وأمتعتها ويهينون سكانها ويسفكون دم بعض كبرائها وكان حسين باشا قبطان لم يرد ان يحرم نفسه من غنائم الغوغاء أو خاف ان يسبقوه اليها فأصدر عدة قوانين لا مثيل لها في العالم ومثال ذلك باع بالمزاد متاع الاقباط ثم أتبعهم بالحريم والاولاد . فكانت الاسواق بدل ان تحوى المتاع فقط كانت تقام الاسواق لمبيع السيدات والاولاد . مما لم يجرى له مثيل أبداً مما اضطر عقلاء المسلمين على الاحتجاج وكان على رأسهم الشيخ السادات وعمر مكرم الذى عارض الجند الذين حاصروا منزل أحد كبار الاقباط وأعلنوا بيع زوجته واحدى بناته بالمزاد فأخذ الشيخ السادات يصرخ ويستنجد حتى اجتمع جمع عظيم وخوفاً من حصول هياج ترك الجند السيدات وأمسكوا به ليقابل حسين باشا قبطان وهناك وقف في وجهه .

واذ حرض عمل هؤلاء الجند الغوغاء ، زادوا في غيهم فأعلنوا الجهاد ضد الاقباط «^١» علانية أذ حللوا نهب وسلب بل وقتل المسيحيين فامتلات الشوارع بالجثث وعم الاضطراب حتى استنجد

(١) كتاب تاريخ الاقباط وكنيستهم لمدام بونشر وكتاب عهد

الماليك للرافعى .

الاجانب بدولهم ولا سيما فرنسا فاستعد نابليون بحملة يخلص بها الفرنسيين المقيمين بمصر .

واذ رأى زعماء المسلمين وعقلائهم تطور الحوادث فقد احتجوا أولا لدى حسين باشا قبطان فلم يستمع للاحتجاج ، واذ كان يهمهم الوفاق بين عنصري الامة كى يتعاون الجميع في دفع الخطر الخارجى فقد استجدوا بتركيا ، ولما عرف قبطان باشا باستجداد الشعب منه غاظة هذا الامر فصمم على ان يرغمهم جميعاً على الرضوخ لامره والسكون فأمر بالقبض على الجوهر-رى في أقصى الصعيد . ولما كان في مكان حصين مع ابراهيم بك ومراد بك فقد قبضوا على زوجته وقد كانت محتفية عند (حسن أغا كتخدا على بك) وهـ وامين حساب الجوهرى وامين سره وأسروها مع بناتها وأولادها وسألوها عن أموال الجوهرى الباقية ولما لم تحجب أخذوا في جلدتها وتعذيبها بكل قوة . وتحت تأثير التعذيب والقسوة أقرت على بعض الجبايا وقد كانت كثيرة أمتعة وأواني ذهب وفضة وسروجات أخذوها ولكن لم يطلقوا سراح النساء .

ولم يكتف قبطان باشا بهذا بل كان يريد ان يتشفى من الجوهرى البعيد عن مخالفه ، ففرض عليه وعلى كبار المسيحيين الذين هربوا من وجهه غرامة مالية كبيرة تبلغ عدة آلاف من الجنيهات فباعوا ما يملكون وبعضهم أفنى كل ما يملك في سبيل دفع هذه الغرامة وباعت السيدات أمتعتها الباقية وحليها الخفية .

ثم تبع هذا الامر بفرض عوايد على منازل الاقباط ، كما حرم عليهم التسمى بأسماء الانبياء أى لا يسمى قبطى بأسماء ابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف وغيرها غير ان الجيش التركى للدولة العثمانية كان يحتاج لكل جندى فلم تلبث تركيا ان استدعت قبطان باشا مع الجيوش والجنود التى معه فرجع تاركا الحكم للامراء أمثال عابدين باشا ودرويش باشا .

عودة : كان ابراهيم بك ومراد بك قد عرفا عمر مكرم فأرسلاه مندوبا عنهما ليفاض الامراء في سبيل عودتهما وتم الاتفاق لضعفهما فعادا ثانية الى الحكم وعاد معهما ابراهيم الجوهري ليتحمل اعباء هذا المنصب الخطر الخطير ثانية وكان يحاول ان يعدل من طغيانها باكساب بعض قوانينها شيئا من العدل والرحمة . بل ان نفوذه عليهما زاد حتى كان له مركز عظيم لديهما تدل عليه القصة الآتية :

اعتدى مرة موظف ادارى من المماليك المعينين في الاقسام على أحد الالهالى في القاهرة فدافع عن نفسه فأراد المملوك القبض عليه بغير حكم شرعى من الوالى أو اذن ممن ينوب عنه فثار لذلك أهل منطقته اذ كان ذا شأن بينهم وكانت ثورتهم تهدد بثورة عامه في القاهرة فبمشورة ابراهيم الجوهري عزل الحاكم هذا المملوك وعين مملوكا آخر أرغمه الجوهري على ان يذهب للالهالى ليعتذر لهم عن السلف الخاطئ .

ويحكى البعض الآخر قصة أخرى اذ يقولون ان أحد أهالى مديرية الشرقية شكى للواليان أحد الامراء فلم يرى أثراً لشكايته فعاد الشكوى

فلم ينصف فدعى الى الثورة فوجد النفوس مستعدة لدعوته وأوشك الامر ان يؤدى الى ثوره عامة قد تؤدى الى حرب طاحنة فنصح الجوهري الحاكمن ان ينزلا الى زعماء الشعب وحصل منهما على تعهد كتابى بالعدل وعهد العوده الى الظلم وذهب الجوهري بهذا التعهد الى الشيوخ الشرفاوى والسادات والبكرى والنقيب فاطمئن الشعب وعاود الهدوء .

رجل سلام : قضى بعد ذلك ابراهيم الجوهري فى أيام حكم ابراهيم بك ومراد بك خمسة سنوات بعد رجوعهما حتى أدركته الوفاء كانت من أعصب الايام ومن أكثر أوقات مصر اضطراباً . ومن أشدها هولاً . اذ أظهر هذان الاميران من الظلم والطغيان ما لم يسبق له نظير ولم يسبقهما سابق سوى قبطان باشا الذى لم يفقه أحد قط ، فكان أحدهما وهو مراد عنيفاً غليظاً شديد البطش قصير المنظر ، أفسد كل ما أصلحه السابقون واعتدى هو وخاصته على حقوق الناس وكان الآخر وهو ابراهيم بك ضعيفه شديد الحرص بلغ من ضعفه ان كان مطية لزوجته . حتى قيل أنها كانت لا تبالى بصفعه أيا كان وأمام أيا كان فلا يغضب ولا يرعوى اذ كان همه الا كبر ان يحتفظ بنصيبه من الحكم ومن غنائمه ، فترك لزميله الجبل على الغارب . وقنع بما كان يلقيه اليه ، وقد يبدو عجيباً ان يكون الجوهري فى خدمة رجال هذه الدولة وهو الذى قضى حياته كلها فى خدمة الشعب ورفع كثير من المظالم عن أكتافه .

وان كان الشعب قد ثار عدة ثورات كما سبق ان بينا . فقد بقي هو بعيداً عن هذا الامر ولم يشترك مع الناس في تلك الحوادث على أنه لم يقصر في الاشتراك في حل المشاكل وان لم يشترك في الثورات . فكان كلما ثار عمل على تهديئة الحال . وكانت مشورته دائماً ان يتبع الامراء سبيل العدل والاحسان وان يعدلوا عن طريق العسف والظغيان وكان له قبل وفاته بسنة واحدة سنة ١٨٩٤ الفضل في كتابه الوثيقة الاجتماعية التي تعهد فيها الاميران الحاكمان بمراعاة العدل .

أخلاق : انه لمن الغريب حقاً ان نرى في عصر يمتلئ أفراده بالخسة والدناءة والفساد والخديعة فرداً على خلق متين مثل خلق ابراهيم الجوهري وفي بعض القصص الآتية الدليل القوي والبرهان الساطع على خلق قويم لا مثيل له .

أتاه أخاه جرجس الجوهري يوماً يشكو رجلاً من الرعاع كان يسبه كلما مر به حتي كره المرور من هذا الطريق ، فطيب ابراهيم خاطره أخيه واعدا اياه ان يقطع لسان هذا السباب بعد ان استفهم عنه وسأل عليه وبعد يومين سار جرجس في نفس الطريق فما راعه الا الخضوع يقدمه هذا الرجل مصحوباً بالشكر على هداياه . فجرى الى أخيه ابراهيم يعجب من هذا التحول الغريب ويسأل عن هذه الهدايا التي لا يعرف عنها شيئاً ، فقال له ابراهيم « لقد عرفت أنه فقير فأرسلت اليه سمناً وقمحاً وعسلاً . ألم أقل لك أنني سأقطع لسانه وألم أوفي بوعدتي وما صار يسبك »

هكذا كان يقابل الاسائة بالاحسان وهكذا كان يحسن حتى لا عدائه قائلاً « ان جاع عدوك فاطعمه وان عطش فاسقه لانك ان فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه » .

وقيل عن فرط حبه للاحسان انه كان يأمر باقامة ولائم للفقراء دائماً . واذ نزل مرة ليرى فقرائه الذين أحبهم رأى ان موائدهم ينقصها أرزاً فعنف خدمه بقوله ان هـؤلاء الفقراء ضعفاء وضعفهم يوجب علينا ان نواسيهم ونخفف همومهم ونجبر قلوبهم الكسيرة ببعض ما نملك من نعم الله . وزاد في تعنيفه لهم حتى بكى وأبكاهم .

وقيل عن صبره وطول أناته مع حبه للخير والاحسان . ان شحاذاً كان يعرف انه لا يرد سائلاً يبسط كفه اليه أبداً فأتاه وطلب منه مالا فأعطاه ، وعأوده بعد ساعة وسأله فأعطاه ورجع فسأله فأعطاه وأخذ يلاحقه في كل مكان فكان لا يخيب ظنه أبداً حتى انه طلب منه مالا ثمانية عشر مرة وأخيراً قال له السائل « ان كنت لم تسئم الاعطاء والاحسان فقد سئمت والله الملاحقة والسؤال » .

وقيل أيضاً ان كبراء الاقباط اجتمعوا في صبيحة أحد الاعياد للتوجه لتهنئة البطريك فتأخر عليهم المعلم فانوس ولما عاد علموا منه انه كان يطلق سجيناً ذا عائلة كاد ان يذهب ظمأً فعتب عليه ابراهيم الجوهري لاستنثاره بعمل هـذا الخير دون ان يشركه معه . وبحث عن السجين حتى عرفه وأوجد له عملاً .

الناحية الطائفية : كان ابراهيم الجوهري تقياً ورعاً فاضلاً يضحى في سبيل ان يقدم خدماته للمجموع ، كان ينسخ الكتب الدينية القديمة بنفسه وكم سهر فيها من ليالى وكم كات يداه اعياءاً من كثرة الكتابة ويقدمها للمكاتب الكنائسية . وكان بالرغم من دخله البسيط في أول عمله كمكاتب عند أحد الممالك فقد كان ينفق ربيع دخله على الخير . وأكث من الربع يدفعه نفقات نسخ كتب أخرى غير التي ينسخها بنفسه حتى امتلئت بعض مكاتب الدير من الكتب التي ينسخها أو يتكلف نفقاته حتى اندهش في أمره البطريك واستدعاه وسأله . ولا زالت آثاره بمكتبة البطركية بمصر حتى الآن .

ولما ارتفع مقامه في الحكومة استصدر من الولاة ورجال القضاء الشرعى أوامر وفتاوى بترميم البيع والكنائس والدير المتهمة ، وكان ينفق على هذه الترميمات والتعميرات من ماله الخاص ويتبع الاملاك الكثيرة ويحبس ريعها على هذه الاماكن ، وكانت أهم هذه الترميمات والعماير بناء سور لدير انبا انطونيوس بالجيل الشرقي لا زال مسمى باسمه وبني كنيسة ابى سيفين بحارة زويله .

ثم أحضر عالماً يونانياً يعرف العربية على تفقته الخاصة ليترجم الى العربية تفاسير يوحنا فم الذهب .

وقال توفيق افندي اسكاروس مستشداً بالجبرتي في كتابه (مشاهير الابطاط) انه أوقف ٢٣٦ وقفية بلغت اثمان العقارات الموهوبة فيها أكثر

من عشرة آلاف جنيه وقال مؤلفوا كتاب « تاريخ الامة القبطية » ان الوقفيات بلغت أكثر من ذلك .

وقد كان المعلم ابراهيم صاحب المسعى فى سبيل الحصول على ترخيص ببناء الكنيسة القبطية الكبرى الحالية بالازبكية . اذ حضرت الى مصر احدى أميرات بيت آل عثمان فقام على خدمتها بنفسه وقدم اليها عند سفرها هدايا نفيسة فأرادت ان تكافئه على صنيعه مكافئة ترفع شأنه هو . ولكنه التمس من أجل طائفته استصدار فرمان سلطاني باقامة كنيسة ، وبعض مطالب أخرى خاصة بالشعب فصدرت الارادة السنية بما طلب على ان الوفاة أدركته قبل ان يبنيا فتولى ذلك أخوه المعلم جرجس .

ولقد بلغت به عنايته ان كان يخصص لكل دير وقتاً معلوماً يذهب اليه فيه برعى شئونه ويكمل احتياجاته ويقضى مطالب رهبانه .

وانه لمن الشاهد حتى الآن ان عائلة انطونيوس عازار نعوم السرياني لا زالت حتى يومنا هذا تحي ذكرى ابراهيم الجوهري بمحفلات سنوية لما له من الفضل على جدها الاكبر نعوم السرياني اذ ناله اضطهاد ديني شديد فى حلب حتى فر منها — وحضر الى مصر خالى الوفاض فأواه الجوهري وأعطاه مالا وأشغله حتى اغتنى .

كلمة تقدير : يقول الجبرتي فى تاريخه عن ابراهيم الجوهري « انه أدرك بمصر من العظمة والنفوذ وبعد الصيت والشهرة ما لم يسبق لمثله ولا لغيره من أبناء جنسه وكان من دهاقين العالم ودهاتهم لا يقرب عن

ذهنه شيء من الامور الخ» .

فان كانت هذه كلمة التاريخ فلتأمل في كلمة أحد كبار الرجال المعاصرين له « انه كان أكبر أهل زمانه . وكان محباً لله . يوزع كل ما يكتنيه على الفقراء والمساكين كما بهم بجميع الكنائس كان يرضى جميع الطوائف يقضى حاجات الكافة . لا يميز في الحق واحداً عن آخر . حتى لقد رأيت به بعينى رأسى يوزع قمحاً ودقيقاً على فقراء المسلمين في أيام رمضان والاعياد الاسلامية » .

وانه لما بيعت على الاسف في النفس حدوث حريق يفتى بعض كتبه وآثاره التي تثبت معرفته للتركية والعربية والقبطية حتى أنه كان يرسل الباب العالي بالتركية .

وتوفى ابراهيم الجوهري بعد ان اكتسب بأخلاقه الكريمة حب الجميع حتى ان ابراهيم بك سار بنفسه في جنازته ولم يملك نفسه عن البكاء ودفن بمدفن عائلته بمصر القديمة في يونيه سنة ١٧٩٧ .

جرجس الجوهري



نشأته : لم يعرف تاريخ ميلاد جرجس الجوهري تماماً كما لم يعرف تاريخ ميلاد أخيه ابراهيم كما ان حدائته كانت

مجهولة تماماً اذ استرعى أخـاه انتباه الناس فوجه الانظار . فـكل ما عرف عنه حتى الآن ابتداء حياته كصراف في بلدته (قن العروس) من بلاد مديرية بني سويف . وأبت نزاهة ابراهيم الا يوليه أي عمل كبير حتى لا تظن به الظنون .

وقد شهد حكم ابراهيم بك ومراد بك اللذان اختاراه بعد رجوعهما من الصعيد أثر رجوع حملة قبطان باشا الى تركيا وولياہ رأسۃ الاعمال الكتائية حتى توفي أخوه فعيناه بدلا عنه اذ لم يجدا أفضل منه . وتشهر مدة رأسۃ جرجس للدوان بالقلائل والفتن وأعمال العنف التي تبعتها دخول الحملة الفرنسية الى مصر كما فصلناه سابقاً ونورد عنه البعض فيما يأتي

ابراهيم بك ومراد بك : بعد ان استكتب المعـلم ابراهيم الجوهري الواليان ابراهيم بك ومراد بك وثيقة الاطمئنان أبي ظلمهما الا ان ينقضاها ومضت ثلاثة أعوام مكفهرة الجو معكرة الافق والنفوس قلقه والقلوب واجفة مضطربة ، والصدور محرجة متقدة . وفيما كان شعب مصر متردداً بين الوثوب والانهاء أناه نأى الفرنجة ينزلون في الاسكندرية في ٣ يوليو ١٧٩٨ فنظر الى الطغاة الذين سلبوه وآذوه لعله يجد فيهم من الحماية ما ينسيه مرارة عسفهم ، ولعلمهم يكفرون في ذلك عن ماضى طغيانهم . واذ وعدهم مراد بك ان يحطم الجيوش الفرنسية تحت سناك خيوله فما وسعهم الا السكوت والانتظار وجاءت الرسل تصف الاعداء النازلين بأرض الديار وتنبئ ان أعداء اليوم ليسوا كالأعداء السابقين

فقد حملوا معهم بنادق تطلق نيراناً تقتل قبل ان يشتبك الحيشين بالسواعد كما يحملون مدافع ترسل نيراناً تحطم الجلود وتهد الصخر القوى الممدود فاستولوا على الاسكندرية بغير مقاومة تذكر ووالوا الزحف متجهين صوب القاهرة فعرف الناس ان الدولة القائمة لم تكن الا دولة جبن اذ تحطم الناس وتطأ النفوس لا تجسر على مواجهة أعداء أقوىاء .

الحملة الفرنسية : والت الحملة الفرنسية سيرها وحطمت في طريقها مقاومة مراد بك وإبراهيم بك اللذان هربا الى أقاصى الصعيد ودخلت القاهرة حيث سارع نابليون بونابرت لتهديئة الحالة وتنظيم الاحوال . فلم يسع المعـلم جرجس الجوهري الا ان يسلم أوراقه وعهدته للوالى أو الحاكم الذي انتصر ودخل دخول الظافر . ولما كان نابليون لم يحضر الى مصر بمجنود فقط بل كان عدد العلماء معه لا مثيل له . وقد كان من دواعى دهشته ان يراجع علمائه كل الحسابات والعهدية التى لديه فيرى منتهى الدقة والامانة حتى قدره حق قدره وأنزله من نفسه منزلة حسنة ولو ان جرجس رغب فى معاونة الفرنسيين لوصل لمركز سام ولنعم كما نعم من قبل ولكنه رفض وترك رأسه الديوان ، فاعتبره الفرنسيون عميد الاقباط وأجلوه واحترموه .

نابليون يستنجد به : قالت لجنة التاريخ القبطى فى كتابها « تاريخ الامة القبطية » . واستصحبه نابليون الى السويس فى أحد المهام ، وبالرغم من موالاتي البحث فى كل المراجع لم أعرف تماماً ماهية هذه المهمة ولم

يذكرها توفيق اسكاروس في كتابه وليكتنا نستنتج من سياق الحوادث ان اقباط السويس لا قوا مذلة واضطهاداً من مسلميها. فقررُوا في اجتماع عام عقدوه عدم دفع ضرائب الحكومة لا تعدل ولا تنصفهم من هذا الاضطهاد فكان لزاماً على نابليون اذا اراد اخضاع هذه الحركة بالطرق السلمية ان يلجىء الى المعلم جرجس وهو قبطى بل وعميد الاقباط كي يقنع أبناء طائفته ان عقلاء المسلمين لا يد لهم في ذلك وان الحكومة ستأخذ الرعاع بالشدة ، حائثاً اياهم على دفع الضرائب بهدوء فيعاونوا الحكومة في محاربة الظلم الذى يشتهكون منه .

حوادث وقلاقل : تالت الحوادث بعد ذلك ولكن لم يكن للمعلم جرجس فيها شأن من رجوع نابليون الى فرنسا خلسة وتعيين كبير الحكم مصر ثم فتك سليمان الحلبي به وتعيين مينو ثم الضغط الانجليزى التركى لمينو حتى عقد معاهدة الخروج من مصر فعادت مصر لحكم تركيا بعد أكثر من ثلاث سنوات ورجع الحكم مصر قبطان باشا صاحب الفضائع المشهورة التى سبق ذكرها فى ناريج حياة ابراهيم الجوهري . عاد قبطان باشا ليستأنف اضطهاده للاقباط غير انه أشرك مع الاقباط طائفة المماليك فأخذ يحتال للقضاء عليهم بأدناً الوسائل وأسفل المكائد فأولم لكبارهم وليمة فى أكبر سفنه وأحرقها . وكان يدعوهم الى الديوان ليقبض عليهم ويفتك بهم غير ان الانجليز كانوا يسارعون لتجديتهم دائماً حتى كاد ان يؤدى الامر الى الاشتباك والاصطدام بين قبطان

باشا والانجليز . ثم سافر قطان باشا الى تركيا وترك في ولاية مصر خسرو باشا الذي كان على درجة كبيرة من الضعف شجعت على ارتكاب كثير من الفظائع ملئت القلوب حقداً وحفيظة . وكان الامراء قد اسعادوا قوتهم فبدأوا يزحفون الى القاهرة بهزموه جنود خسرو في مواقع متلاحقة نعم الاضطراب وهرب خسروا ليترك البلاد في فوضى حتي دخل الامراء المماليك ليشاركوا محمد علي في الحكم الذي طرد البرديسي وولى بدلا منه خسرو وتلاه خورشيد الذي عمت في أيامه الاضطراب .

في حكم خورشيد : يكفي ان تنقل هنا بعض العبارات التي وردت في كتاب الاستاذ محمد فريد أبو حديد اذ قال عن حكم خورشيد واضطهاده للاهالي .

« وامتعت عن القاهرة الاموال التي كانت تعينها على تسير الامور ودفع مرتبات الجنود لوقوف الجيوش المحاربة على أبوابها ولان الامراء كانوا أحراراً في التنقل يحبون من المال في المناطق التي يحتلونها أو يغيرون عليها . فلم يجد خورشيد أمامه ملجأ الا ان يشتد على أهالي القاهرة في استخلاص ما يمكن استخلاصه منهم بأشد الوسائل وأدتها فلم يتردد في وسيلة تخرجه من مأزق الافلاس والعجز ، حتي قبض على نساء الامراء والاقباط واضطروا الى اقتداء أنفسهم ببذل المال . فعل ذلك حتي اضطروا ان يعين أمتعتهم وحليهن ، ويتكبدن أعظم المشقة في

سبيل اقتداء أنفسهم وكان لهذا الاعتداء أثر بالغ في نفوس الناس والايان ، ولا سيما وقد كان القبض على النساء مما لم تجر به العادة في أشد الاوقات حرجاً واضطراباً . ثم أمر أهل القاهرة بدفع الضرائب مقدماً عن السنة ، ثم طالب الملتزمين بدفع ما عليهم من الاموال مع أنهم لا يتمكنون في تلك الظروف التي تشبه الحصار من الذهاب الى الريف لتحصيل الاموال من انزراع ، وظن خورشيد ان رؤساء الاقباط يستطيعون ما لا يستطيعه غيرهم ففرض عليهم اداء قسط كبير من المال . وتمكن بهذه الوسائل الشديدة ان يجمع مقدار من المال شعر بأنه لا يفي به . ففرض مقداراً آخر حتى عم الاضطراب في القاهرة .

حكم محمد على : مكر محمد على بخورشيد ولما ان مهد السبيل لنفسه تولى الحكم أو ترك زعماء الشعب يولونه اياه وكان خورشيد محصوراً في القلعة وقتذاك . وقد كان المعلم جرجس في كل هذا الوقت في رآسة الديوان حتي ولاية محمد علي وحصاره لخورشيد . واذ طالب جنود محمد علي بمرتباتهم وهددوه ان يخـذلوهم في الحصار ولم تجد معهم الحبيج والعود ثم زاد عناؤهم فثاروا وخرجوا عن طاعته حتى جزع الباشا وظن ان الامر أفلت من يديه . واسكن السيد عمر مكرم هدأ جزع صديقه الباشا وأكد له جرجس الجوهرى النجاح مادام شعب مصر ورائه مقترحاً كأمين للخزانة يعرف تماماً حالتها من الخلو ان يحل الاهالى محل الجند الذين تخـلوا عن اداء واجبهم ، وتم ذلك العمل الباهر حتى

خرج خورشيد من مصر فقرب محمد على جرجس الجوهري اليه اذ خدمه وأخلص اليه النصيحة ، كما لاحظ عليه أمانة ودقة في عمله وأخلاصاً لا يفوقه اخلاص .

انقلاب : التفت محمد على بعد ان استتب له الامر للاصلاحات الداخلية كما ان جيشه كان قد كبر وتضخم وكانت هذه الاصلاحات تحتاج لتنفيذها الى مال كثير كما كان لجنود الجيش مطالب فطلب محمد على من جرجس الجوهري فرض عدة ضرائب تسد الاعواز الذي سيطراً على الخزانة ، وقد كان المعلم جرجس قد أرهق نفسه في المدة الاخيره في سبيل موازنة المالية ازاء مطالب محمد على المالية الكثيرة فلفت نظر الباشا الى صعوبة فرض ضرائب على شعب مرهق فلم يبالى الباشا بهذا الامر وأمر تنفيذ الضرائب فنفذها المعلم جرجس فقابلها الشعب بضجة ومعاملة كانت من أسباب خصام السيد عمر مكرم لصديقه محمد على باشا . ثم زاد اعواز محمد على باشا اذ كلف بتجهيز حملة لاختاد ثورة الوهابيين فأمر بفرض ضرائب أخرى فلم يبادر المعلم جرجس بحمايتها لانين الشعب مما يحمله فتغير الوالى عليه بعد ذلك . واذ كان محمد على في أشد الحاجة للمال لم يبالى بشفقة الجوهري على الاهالى فقبض عليه .

واذ سمع الشعب وكان يعلم غضب الوالى على عمر مكرم زعيمهم ناروا وهاجوا وابتدأت مظاهراتهم فسارع الباشا بالقبض على زعماءهم حتى يرهب الشعب . واستدعى محمد على المعلم غالى وأسند اليه رأسه الديوان

وكلفه بمراجعة حسابات الجوهرى وفحصها فحسباً دقيقاً فلم يجد فيه موضع طعن ولا شبهة بل وجدته مما يدعو للفخر حتى أرغم الوالى ازاء هذا الامر الواضح ان يفرج عنه على شريطة دفع مبالغ طائل فرضه عليه ، فاضطر الجوهرى ازاء ذلك ان يبيع كثير من أملاكه فى الازبكية وقنطرة الدكة ثم لجأ الى الوجه القبلى ليعبد عن هذا الجو المكفر ويقال ان الوالى هو الذى نقاه وبعد ان قضى هناك أربع سنوات اذن له بالعودة الى القاهرة فعاد فى نوفمبر سنة ١٨٠٩ فقبل مقابلة لا مثل لها من الشعب الذى قدره بعد ان فقده .

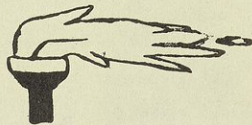
وكان المعلم غالى قد أعـد له داره وجهازها بالاثاث والرياش . ولما وصل تقاطر وجوه المدينة من جميع الملل للتسلم عليه ، ولما قابل الباشا بعد عودته أكرمه اذ ذكر له خدماته السابقة ، غير انه لم يعيش بعد ذلك طويلا بل توفي سنة ١٨١٠ ودفن بدير مار جرجس بمصر القديمة بجوار أخيه بمدفن العائلة .

الناحية الطائفية : لم يفق المعلم جرجس الجوهرى فى احسانه وخدماته للطائفة فى القرن الثامن عشر ولا ما قبله الا أخيه المعلم ابراهيم الجوهرى ، وقد كان شريكه فى تعمير الكنائس والاديرة ووقف العقارات عليها وقد أوقف وحده أكثر من ستين وقفه . كما استصدر كثير من فرمانات والاوامر للمصالح الطائفية ومثال ذلك فرمان بختم محمد على باشا والى مصر مؤرخ ٢٢ جمادى الاولى سنة ١٢٢١ الى قاضى

الاسكندرية وعلى افدى نقيب الاشراف والسيد حسن افدى نقيب
السادة الاشراف وعلى بك امين الجمرى ومحافظ الثغر بدم التعرض
لطائفة الاقباط بالاذى أو الحبس أو الغرامات .

ومن الحكايات الغريبة التى تحكى عنه ان فقيراً كان له مال عند
الجوهرى فلما وافته المنية ظهر له في حلم وأرشده الى بقال ليأخذ منه المال.
وتكرر هذا الامر فذهب الفقير الى البقال فأعطاه المال قائلاً انه كان
عندي أمانة وأحمد ربي انى قد أوصلته لاصحابه .

كلمة تقدير : لقد كان المعلم جرجس أميناً كل الامانة في عمله فدفعته
أمانته ان يخلص النصح لكل والى والى وكنه كان يرعى الشعب ومعظمه
من الفقراء فيعارض كل والى يبغي ارهاق الشعب ونكن محمد على كان
كوالى ينزع للدكتاتورية لم يقبل النصح وكان هذا سبباً للخلاف وقد
يكون الاحتياج لمال أعظم .



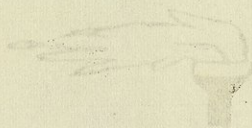
بیت و بیست و نه بیت از این کتاب است که در این کتاب است
 و در این کتاب است و در این کتاب است و در این کتاب است
 و در این کتاب است و در این کتاب است و در این کتاب است

و در این کتاب است و در این کتاب است و در این کتاب است
 و در این کتاب است و در این کتاب است و در این کتاب است
 و در این کتاب است و در این کتاب است و در این کتاب است

و در این کتاب است و در این کتاب است و در این کتاب است

طبرستان شاه غیاثی

و در این کتاب است و در این کتاب است و در این کتاب است





قادر خان راجا



بطرس باشا غالى فى وكالة الحفانية



بطرس باشا غالى فى رئاسة الوزارة

بطرس باشا غالى

كتب

الدكتور حسين هيكل كمقدمة لتاريخ بطرس غالى باشا فقال « لعلك ان طلبت مثلاً أعلى بين العالم لشعب وديع هادى، لا ترى خيراً من مصر محققة لهذا المثل . ثم لعلك ان طلبت مثلاً أعلى لشعب طموح لا تقتأ أحشاؤه تضطرب بأسباب الثورة على الحاضر تطلعاً الى الكمال والى العظمة والمجد — لا ترى خيراً من شعب مصر محققاً لهذا المثل ، فقل ان عرفت مصر وسائل العنف في السعى الى أغراضها . ولم يقع ان ذلت مصر واستكانت أو يئست من تحقيق هذه الاغراض ، ولهذا الظاهر من التناقض فى صورة الحياة المصرية أثر كبير فى قدر رجال مصر والآخرين بها لتحقيق مطامعها ، فهى أبداً فى نضال مع أمم غيرها تريد قهرها واذلالها وهى أبداً لا تذلل لقاهر وان كانت ظروفها وكانت تاريخها قد ألجأها الى ستر ثورتها الدائمة تحت ظاهرها من الهدوء والسكينة ولذلك كان حتماً بحكم هذه الظروف ان ينشأ فيها الرجل المحرك للعواطف يستنهضها ولهمم يحفزها ، ولنشاط الجماهير يدفعه الى الغاية السامية التى تطمع مصر فيها بحق . وان ينشأ الى جانب هذا الرجل رجل آخر هو السياسى الذى يعمل لتلافي الاعطام بين اندفاعات الشعب وبين القوى الغالبة فى مصر اصطداماً عجز الكل حتى اليوم عن

تقدير نتائجه ، أهو ينتهى الى تحطيم قوة الغالين وقيام مصر الى جانبهم
قوية اليد كما هى قوية النفس أم هو ينتهى الى تحطيم أمل النفس المصرية في
بلوغ المكانة التي تطمع فيها ؟ واذا تحطم أمل أمة فترت جيلا بعد جيل
وقصدت في بعثه واستعادته حتى يكون ظرف جديد يعين على هذا البعث
ويدفع في نفس الامة أملا حاراً قوياً ينبض به قلبها ثم يندفق ثورة قوية
تخلع النير وتحطم القيود .

وكان هذان الرجلان ، رجل الدعوة الى المثل الاعلى ورجل السياسة
والسلم خصمين في أكثر الظروف وكانت الجماهير بطبيعتها نصيرة أبدأ
للمثل الاعلى ، غذاؤها في الحياة بل هو حياتها بالذات أما السياسى الذى
يزن القوى ويفاضلها ويعمل للوصول الى خير ما يمكن ان تصل اليه
بلاده فالحوادث اللاحقة هى التي تحرك عليه أوله . ولقد كان بطرس
غالى سياسياً ، وكان من أكثر المصريين اتصالاً بحوادث عصره من
ناحيته السياسية فالحوادث وحدها الحكم عليه وللتاريخ انصافه .

مولده : ولد بطرس غالى في درب الحمام بالقاهرة التابع لقسم
عابدين في ١٢ مايو سنة ١٨٥٦ وكان أبوه وقتذاك موظفاً بدائرة مصطفى
باشا فاضل ، والتحق بمدرسة حارة السقاين التي أنشأها الانبا كيرلس
الرابع الملقب بأبو الاصلاح ثم انتقل من مدرسة حارة السقاين الى
مدرسة مصطفى باشا فاضل حيث أمضى سني دراسته الاولى وانتقل الى
مدرسة الاقباط الكبرى بالدرب الواسع وهى احدى منشآت الانبا

كيرلس الرابع أيضاً . ومما يحكى عنه أنه زار المدرسة ذات مرة وكان ناظرها يعقوب بك نخله رفيله فأعجب بذكاء بطرس ونباهته . فأرسل لوالده يوصيه بانه والاعتناء به متنبأ له بمستقبل عظيم . وقد كان موضع اعجاب مدرسه خصوصاً مصطفى بك رضوان الذى درس له العربية والفرنسية الذى قال عنه مرة (كما روى ابراهيم بك حلمى مفتش صحة السويس سابقاً) هذا التلميذ لا بد ان يكون في يوم من الايام وزيراً .

كما روى أيضاً ابراهيم بك حلمى ان بطرس كان يكلفه بقراءة المحفوظات الفرنسية فاذا ما قرأها له مرة أو مرتين اثنتين حفظها على الاثر عن ظهر قلبه . وروي أيضاً ان مدرس اللغة الفرنسية فرض على كل تلميذ ثمانى صفحات من الاجرومية فتذمر التلاميذ من ذلك ولما أتوا في اليوم التالى أبدوا كلهم عدم امكانهم حفظها الا بطرس غالى فانه سمع ما عليه وما هم ملزمين بحفظه بل وجميع ما تبقى من الكتاب أيضاً . لقد كان مثالا خارقا للعادة من أمثلة الذكاء وقوة الذاكرة المنقطعة النظير ، ويسرت له قوة الذاكرة تعلم اللغات المختلفة فقد أتقن العربية والفرنسية والتركية والفارسية وقد تعلم التركية والفارسية من أحد تجار خان الخليلي نظير ان يدفع له (مصروفه اليومي الخاص) .

ومما يدل على قوة الذاكرة والذكاء الى جانب قوة الارادة التي امتاز بها أنه سافر الى انكلترا فقابله أحد علماء الآثار المتبحرين في اللغة الهيروغليفية القديمة وعرف أنه قبطى فكلمه باللغة القبطية فلم يجبه .

ولم يلبث ان عاد الى مصر فأكتب على دراستها فلم تمض ستة أشهر حتى كتب للعالم خطاباً بالقبطية .

ولقد كان الى جانب ذكائه وقوة الذاكرة التي وصلت الى حد الاعجاز مع هذه الارادة القوية ذا صحة متينة تدل عليها تلك القامة الممتلئة والعضل المفتول ، كما كان لبريق عينيه الدال على ذكائه أثراً غريباً في نفس المستمع اليه . حتى انه لم يتخط سنواته الاولى ودخل في طور الشباب حتى كان معروفاً من أولى الامر يومئذ وعهدوا اليه بأعمال ذات خطر ومسئولية اعتماداً على هذه العزيمة والذكاء .

حياة الوظائف : تخرج بطرس غالى من المدارس فالتحق كعالم في مدرسة حارة السقاين التي كان فيها تلميذاً من قبل وكان ذلك في أيام الانبا ديمتريوس البطريرك السابق غير أنه لم يستمر طويلاً اذ كان مرتب السبعة جنيهات التي يتناولها لا ترضى نواحي العظمة في نفسه فترك العمل بالرغم من ان هذا المرتب لم يكن قليلاً في ذاك الزمن .

وبعد تركه للعمل عهد اليه تعليم ادريس راغب الذى صار بعد ذلك سعادة ادريس بك راغب المثرى الكبير وصاحب جريدة الايجت ونجل اسماعيل باشا راغب الذى كان رئيساً للوزارة سنة ١٨٨٢ وقت الثورة العراقية ، ويحكى عن راغب باشا هـذا انه دخل عليه ذات يوم المرحوم شريف باشا (الوزير المعروف) فقال له ان عندي قبطى متوقد الذكاء حاد الذهن .

فطلب شريف باشا رؤياه ، ولما حضر أخذ يسأله بعض أسئلة ويتجاذب معه أطراف الحديث فسر منه جـداً وأشار اليه بالتقدم في الامتحان الذى عمل من أجل وظيفة مترجم لمجلس التجارة بالاسكندرية الذى كان قائماً من بعض الوجوه بأعمال المحاكم المختلطة التي أنشئت فيما بعد .

واستمع بطرس للنصيحة وتقدم للمسابقة فأدهش المتحيزين وأرغمهم على تعيينه اذ لم يكن في المتقدمين شخصاً في نصف مستواه الثقافى فعين فعلاً بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٨٦٧ بمرتب قدره اثني عشر جنيهاً . وقد ذكر بعضهم على سبيل الفكاهة انه نال السبعة الجنيهاً الاولى بخدعة ظريفة اذ تعيّن بثلاثة جنيهاً ونصف ولكنه طلب من البطريك الانبا ديمتريوس كتابة المبلغ كله بالقروش بلا توضيح جنس العملة (صاغ أو تعريفه) فكتب له ٧٠٠ قرش وهم عبارة عن ثلاثة جنيهاً ونصف . وتمسك بطرس بما هو مكتوب فكان له ما أراد واحتسبها له سبعة جنيهاً .

وقد ذكر البعض ان بطرس غالى سافر الى أوروبا لتلقى العلم هناك على أننا لم نجده في التاريخ الصحيح ولا في أي مرجع ولم يؤكد لنا أحد من سألناهم هذا القول بالمرّة فبطرس نبغ ودرس العلم في بلاده وبين أهله وأهل وطنه فزاد بذلك فخراً على فخره . وقد أظهر في وظيفته هذه كفاءة نادرة فقد رقي الى كاتب افرنكي في ١٨ يوليو سنة ١٨٦٩ ثم عين رئيساً للكتابة في سنة ١٨٧٢ .

محسوبة .. ونزاهة : وكان في مجلس التجار قضية ضد أحد محاسب
اسماعيل صديق باشا المشهور بالمفتش واذ كان بطرس غالى يخدم الحق
فقد تسبب في استصدار أمر ضد هذا المحسوب الذي شكك للمفتش . ولما
كان هذا المجلس يتبع وزارة الداخلية فقد ذهب الى شريف باشا يطلب ان
منه طرد بطرس غالى من منصبه .

ولما استدعى شريف باشا بطرس غالى بين يديه وقد كان اسماعيل
المفتش موجوداً سأله شريف عن الامر ، فقص له الحقيقة بصراحة وحرية
رأى مبنياً له الدوافع والدواعى ووجه الحق . فلم يعجب المفتش ما سمعه
وخطب شريف بالتركية مشنعاً في بطرس الذى سكت حتى اتم كلامه ثم
رد عليه بالتركية العالية بأفصح رد حتى بهت اسماعيل ، وازداد اعجاب
شريف وسر من نزاهته وحرية وبش في وجهه . ثم صرفه بعد ان
عرف مقامه وقدره .

ترقيات وأعمال : كان اعجاب شريف باشا ببطرس غالى غير محدود
فراقه في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٧٣ باشكاتباً لنظارة الحقاينة وفيها أظهر
مقدرة عظيمة ونباهة حتى اشتهر بين رجال الحكومة بهذه المقدرة . فلما
قامت حركة نوبار باشا المشهورة التي قصد منها توحيد نظام القضاء بمصر
وخصوصاً فيما يختص بالاجانب كلف محمد قدرى باشا بترجمة قوانين هذه
المحاكم الى اللغة العربية . فكلف هذا بطرس غالى بهذا العمل ، فترجم
القوانين التي لا زالت معمول بها حتى الآن تدل على مقدرة بطرس

ومن أجل ذلك رقي الى وظيفة رئيس الاقلام العربية مع وظيفة مترجم وزارة الحقانية وكان ذلك في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥ في حكم الخديوى اسماعيل .

وفي أول يناير سنة ١٨٧٦ عين مديراً لعموم أقلام وزارة الحقانية وأنعم عليه برتبة (بك) من الرتبة الثانية . وان هذا ليدلنا على عظم المركز الذى حازه بطرس غالى في ذلك الوقت لان هذه الرتبة لم يكن أهلاً لها في مصر الا أشخاص بعدد أصابع اليد اذ كان اعطائها صعباً في ذلك الوقت ومن المراجع التى عثرنا عليها قصيدة بقلم صالح مجدى بك القاضى بالمحكمة المختلطة يهنئه فيها لنواله هذه الرتبة .

وقد أظهر في منصبه الجديد همه عالية ونشاطاً كبيراً فتعين من أجل ذلك سكرتيراً جنرالاً براتب شهرى قدره ثمانون جنيهاً . وأنعم عليه برتبة (الممايز الرفيعة) في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٧٦ .

نحول خطير : حدث في سنة ١٨٧٩ ان صدر فرمان سلطانى بابعاد الخديوى اسماعيل باشا لتراكم الديون على مصر وتبذيره في أموالها . واذ تولى الحكم الخديوي توفيق باشا ابنه فقد كانت رغبته ان يسير بهدوء وسكينة مع نواب الدول الاوربية في مراقبة المالية المصرية . وقد كلف بطرس بك غالى بمساعدة هؤلاء المندوبين وامدادهم بالمعلومات التي يطلبونها عن حالة مصر المالية .

ولما صدر أمر الخديوي في ٣١ مارس سنة ١٨٨٠ أثناء قيام وزارة

رياض باشا بالحكم ، لتشكيل لجنة لتصفية الديون فعين بطرس بك غالى نائباً عن الحكومة المصرية في ٤ ابريل سنة ١٨٨٠ . ولما كان المندوب المصرى الوحيد في هذه اللجنة فقد كانت مهمته خطيرة . اذا كان مكلفاً ان يقدم جميع المساعدات والبيانات والمعلومات لمندوبى الدول الذي كان تعيينه في هذه اللجنة بناء على طلبهم وموافقتهم . وكان في الوقت نفسه مدفوعاً بالدافع الوطني ان يحاذر من مساس الحقوق الوطنية .

وفي هذه السنة قدم لهذه اللجنة تقريراً خطيراً صار مشهوراً لاهميته عن (الاطيان والضرائب) وقد حاز هذا التقرير اعجاب المندوبين أعضاء اللجنة كما حاز اعجاب الوزراء والخديوي فأنشأوا عليه وعلى همته ووثقوا به كثيراً . وقد كان هذا التقرير مرجعاً هاماً لكثير من عظمائنا الحاليين أمثال جرجس بك حنين في وضع كتابه عن (ضرائب الاطيان العقارية) ويعقوب أرئين باشا في كتابه (الاحكام الرعية) وغيرهم من الكتاب والمالين .

ثم عين بعد ذلك في القومسيون « المكلف بتحضير القوانين المتعلقة بشروط قبول موظفى المصالح ومستخدميها وترقيتهم ورفقتهم » وكان هذا القومسيون مؤلفاً برئاسة وزير المعارف زكى باشا وعضويته مع عريان بك تادرس باشكاتب وزارة المالية ويعقوب أرئين باشا .

وبعد انتهاء لجنة التصفية أخذ يحضر مع قدري باشا وزير الحقانية القوانين الخاصة بالمحاكم الاهلية .

وفي ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ عين باشـكاتب لرأسه مجلس النظار بدلا من كميل بك بمرتبة قدره مائة جنيه شهريا .

ولقد كان مما يثير فيه العجب ان يكون بطرس بك غالى القبطى دماً ولحماً مطلعاً بل ومتبحراً في الشريعة الاسلامية كما شهد له علماء الاسلام . ولما كان مشهودا له بالنشاط والهمة والتضلع في اللغات فقد عين وكيل لنظاره الحقانية وصدر بذلك أمر خديوى في ١٠ أكتوبر سنة ١٨٨١ مع بقاء وظيفة (سكرتير مجلس النظار) في عهده وقد كانت من القوائد التي هنا بها قصيدة من رفاعة بك الطهطاوى جاء فيها :

ترقى بطرس رتب المعالى وقد سرت من الاحباب أنفس
بحقانية أضحى وكيلا يحامى عن حقيقةها ويحرص
وتوفيق الآله يقول أرخ بحقانية وكلت بطرس

وكان رغم وکالته للحقانية وسكرتاريته لمجلس النظار لا زال مشغولا بوضع قوانين المحاكم الاهلية مع قدرى باشا وزير الحقانية الذى أضحى رئيسه المباشر ولم يكن هذا العمل بالسهل ولا كنه عرف كيف يقوم به رغم خطورته ورغم مشاغله الكثيرة ونواحى نشاطه الاخرى .

يقول الدكتور حسين هيكل عن هذه الفترة ما يطابق ما ذكرناه اذ ورد في الصفحات ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٥ في كتابه (تراجم مصرية وغربية) ما يأتى :

« أتاح لبطرس غالى الاشتغال في التحضير للمحاكم المختلطة التعرف

الى رئيس النظر نوبار باشا فكان اتصاله به ذا أثر كبير فى تكوينه السياسى وما فقيء هذا الاتصال بينهما وثيقاً مستمراً داعياً الى ثقة نوبار باشا بباشا-كاتب الحقانية حتى كان هو أول من اختاره لى-كون ناظراً للخارجية فى وزارته التى الفها سنة ١٨٩٥ بعد ان اختاره رياض باشا قبل ذلك ومنذ سنة ١٨٩٣ لى-كون ناظراً للمالية . ويرجع اختيار رياض باشا له لوزارة المالية الى سبب خاص ذلك أنه لما انتهت الحكومة المصرية من انشاء المحاكم المختلطة فى سنة ١٨٧٥ كانت على أبواب ضائقة مالية كبيرة جرتها اليها الاستدانة الفادحة فى أول حكم الخديوى اسماعيل سنة ١٨٦٣ ففى سنة ١٨٧٦ صدر قانون بتأليف صندوق الدين وبتعيين المراقبين المالىين ، لكن هذا القانون لم يخفف من وطأة الديون شيئاً ولم يرفع من الضغط على دافعى الضرائب وارهاقهم بأقصى وسائل الارهاق وأبعدها عن كل معاني الانسانية . ثم استتلا صندوق الدين على كل ما كان يحصل حتى اضطرت الحكومة الى دفع مرتبات الموظفين بما جعل أحد الانكليز الموظفين فيها يوماً—ذ يكتب فى مذكراته أنه قضى يومين لم يدخل فيه فيهما طعام لاء—وازه الى ما يسد به رمقه . واذ كان الدائنون الاجانب مع ذلك مصرين على اقتضاء مصر كل تعم—دات واليها . فقد انتهوا الى الاتفاق على تشكيل لجنة للفحص ثم لتصفية ديون مصر وعين رياض باشا نائباً عن الحكومة المصرية فى اللجنة المذكورة وعين بطرس بك غالى السكرتير العام لنظارة الحقانية مساعدة له ،

ثم عين رياض رئيساً للجنة وعهد الى بطرس بالنيابة عن الحكومة .
وفي ذلك الظرف الدقيق اضطر الى ان يدرس من مباحث اللجنة ومن
الشؤون المالية ما يمكنه من ان يضع تقريراً عن نظام الضرائب في مصر
كان بعد ذلك مرجعاً ينقل عنه وحجة يعتمد عليها .

ولما انتهت الحوادث التي تلت تقرير لجنة المالية الى اقضاء المغفور له
اسماعيل باشا عن العرش خلفه توفيق فيه . كانت الحكومة قد بدأت تفكر
في الغاء المجانس القضائية القديمة ، وفي انشاء نظام قضائي جديد هو النظام
القائم الآن . واذ كان بطرس ممن عملوا في التشريع للقضاء المختلط
فكان طبيعياً ان يكون على رأس الذين يعملون في التشريع للقضاء الاهلي .
لذلك عين في سنة ١٨٨١ وكيلاً للحقانية والقي عليه عبء تنفيذ
النظام القضائي الجديد .

وبقى في وكالة الحقانية حتى عين ناظر للمالية في سنة ١٨٩٣ .

أى أنه أمضى احدى عشر سنة في وكالة الحقانية .

الثورة العرابية و بطرس : كان لتصرف اسماعيل باشا المالى الاثر
الكبير في خلو الخزانة المصرية دفعه لان يفكر في معالجة هذا النقص ،
تفكيراً اثار تبرم رجال الجيش اذ (سرح) منهم الفين وخمسمائة من
الضباط معظمهم من المصريين بينما ان الجيش المصرى كان حينذاك متخماً
بالضباط الاجانب الذين كانوا متعطرسين لدرجة اثار مرؤوسهم
وكان اخوانهم من ضباط الجيش يشعرون بالالم من أجل زملائهم

المضطرودين ويخشون ان يكون الطرد نصيبهم أيضاً رغم ما يلاقونه من
عنت الزملاء الاتراك والشر اكسه .

وكان ان أنزل اسماعيل باشا عن العرش ليحتله توفيق . وجاء في
حكمه رياض باشا الذي عين في وزارة الحريه شركسياً هو عثمان رفقى
الذي كان يمقت المصريين ويمتهمهم ، فتأججت فى الصدور مراحل الحقد
وقامت فى نفوسهم زوابع الثورة .

وكان توفيق أول حكمه يظهر العطف والحب لامته ينادي بحكم
الشوري وبسلطة الشعب . ولكنه عاد ونكس العهد الذى قطعه على
نفسه فأثار نفوس القوم كما أثار نفوس الجيش . وجاء حكمه مطلقا
استبداديا غير مباليا بشعور الشعب تاركا الحكم الاجنبى يتغلغل فى البلاد
اذ عرف انه يضعفه ازاء انجلترا وفرنسا القويتين القادرتان ان تخلعهما
كما خلعتا أبيه .

وبالرغم من رؤية توفيق لنذر الانفجار آتية من ناحية رجال الجيش
لتسريح الوف من الجند ومئات من الضباط فقد سرح هو أيضاً عشرة
آلاف جندي فى أول ولايته ، كما رأى اشمئزاز الشعب من حكمه اذ
زادت الضائقة وخوت الخزانة حتى بقى كثيرون من الموظفين يلبهم رجال
الجيش لم يقبضوا مرتباتهم بالرغم من امتلاء خزانة صندوق الدين .

أضف الى ذلك قرار عثمان رفقى باشا بعدم ترقية المصريين فى
وزارة الحريه الى الدرجات التى يستحقونها بينما يرقى الجراكسه الى

أكثر مما يستحقون .

كل هذه الدوافع دفعت الضباط المصريين لتأليف جماعة منهم برئاسة احمد عرابي وعلى فهمي وعبد العال حلمي وقدموا لرياض باشا عدة مطالب للإصلاح سنة ١٨٨١ لم تنظر الحكومة فيها فدفعوا آلايات الجيش للاحتجاج على تصرفات عثمان رفقي والمطالبة بعزله ورفعوا عريضة للخدوي محتجين ، فأصدرت اليهم الحكومة الامر بالذهاب الى قشلاقات قصر النيل حيث القى القبض على ثلاثتهم وجردوا من رتبهم . غير ان آلايات الجيش علمت بهذه المكيدة الحكومية من محمد —ود باشا سامي البارودي وزير الاوقاف في وزارة رياض باشا الذي كان متصل بالثلاثة الضباط من قبل فسارع الجيش الى قصر النيل وحطمت ابواب القشلاق وانقذت الضباط من سجنهم بقوة السلاح وسار الضباط الثلاثة على رأس آلايتهم من قصر النيل الى عابدين وهناك وقف على رأسهم عرابي باشا خطيبا شاكر لهم اخلاصهم وانقاذهم اياه . ثم تقدم الى الخديوي يطلب العفو عنه وعن زملائه وخلع عثمان رفقي من نظارة الحرية . غير انه اردف عبارته هذه بقوله انهم لا يرحون اما كنهم هذه الابل بغيتهم ولما كان توفيق قد رأى كل الاوامر التي اصدرها الى ضباط الجند لا تنفذ ورأى نفسه في مأزق لا يعرف سبيلا الى النجاة منه سارع الى اجابة طلب العصاة وأقال عثمان رفقي باشا من الحرية وعين مكانه صديق الضباط الثائرين محمود سامي البارودي باشا .

وكان لضعف توفيق هذا أثره الكبير في نفوس الضباط المنتصرين . فانضم اليهم الكثيرون من غير العسكريين فازدادوا قوة على قوة ونادوا بضرورة وجود مجلس للنواب وكان سامي البارودي من المنادين به — هذا الرأي جهارا فكان هو روح الحركة ومحورها لمركزه الحكومي الكبير في وزارة الحرية .

وبرغم ضعف الوزارة وشعور الخديوي بقوة التأثيرين فقد عمد لمقاومة هذه الحركة بالشدة فعزل البارودي من نظارة الحرية وعين بدلا منه صهره داود باشا . يكن مكانه الذي أمر بقمع الحركة بمنع اجتماعهم وبث الجواسيس حولهم وأمر بنقل الآليات لتشتيتهم . فرفض الجيش تنفيذ أوامر التنقل وأبلغوا الخديوي بأن الجيش سيحضر بتمامه الى عابدين لابتداء اقتراحات تتعلق بطريقه الحكم وفشلها وبشؤون الجيش ونظامه .

وما ان علم الخديوي به — هذا التمرد المكشوف حتى ارتبك وذهب بنفسه مع وزرائه يرجو ويستعطف الآليات المتمردة ويحقق معهم بنفسه ثم ذهب الى القلعة ليدرك آلاى عرابي ليرجوه ان لا يفعل ما اعزم عليه فلم يدركه اذ كانت عرابي قد توجه الى عابدين فعاد الخديوي ادراجه اليها . وهناك في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ كان عرابي يركب جواده مستلا سيفه وخلفه كل الجيش وضباطه ومن أمامه توفيق في شرفه عابدين وحوله وزرائه وقناصل الدول . أمر توفيق عرابي أن يغمد سيفه فاغمده

وتقدم بمطالبه وهي اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام وربما كان التصديق على قانون العسكرية أهم مطالب الجند وربما اكتفوا به لو ان الحديوى اجابهم فوراً اليه وأمرهم بالانصراف لكي تنظر حكومته فيما عدا ذلك من المطالب . غير ان الحديوى ارتبك فرفض فواجه خطر النداء بعزله والمناداة بالجمهورية كما كان يجري في اذهان العرايين . وأشار عليه الوزراء بالدخول من الشرفة خوفاً من استفحال الامر ازاء مواجهة الرجلين لبعضهما فدخل وعمد الوسطاء بالاتصال بين الحديوي وعراي المتشبث بطلباته . أما الحديوى فكان مرتبكاً بين التشبث كما يشير عليه قنصل المجلترا مهوئاً عليه الامر بين التسليم فغلبه ضعفه فسقطت وزارة رياض ووعد بتنفيذ باقي المطالب بالتدريج والف وزارة شريف باشا الذي استعان بحزبه وشتت الضباط الثلاثة وفرقهم في البلاد فاستتب الامر قليلا غير ان خلافاً نشب بعد ذلك فاستقالت الوزارة والفها العرايين برئاسة محمود سامي البارودي وكان عرابي وزيراً للحربية فيها فالقى القبض على عشرات الشراكسة بينهم عثمان رفقي باشا بتهمة التآمر على نظام الحكم فتدخلت انكلترا وفرنسا وارسلتا بوارجهما الى الاسكندرية وانذرتا عراي بالنفي والتشريد بحجة المحافظة على عرش الحديوى فاستقالت الوزارة محتجة على هذا الانذار فاختل الامن واضطر الحديوى ان يعين عرابي وزيراً للحربية حتى تألفت وزارة اسماعيل راغب باشا وهو فيها .

بطرس غالى والثورة : كان بطرس مشغولا مع قـدري باشا فى تحضير القوانين للمحاكم الاهلية عندما شبت نيران الثورة العرابية فأوقف مؤقتا هذا العمل وفى اثناء هذه الحوادث لاحظ الحـديوى على بطرس ابتعاده واعتكافه عن التدخل فى هذا الامر بل كانت شعوره كرجل سلام ضد القيام بأى عمل ثورى ضد الحـديوى فأنعم عليه الحـديوى برتبة « الميرميران الرفيعة » فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ . وقيل ان الذى طلب الانعام بها عليه هم زعماء الحركة العرابية لـكى يتفوا عنهم تهمة التعصب فى أعمالهم القائمين بها .

وذهب عرابى بمجنوده الى الاسكندرية لمقاومة الاسطول الانجليزى الذى ابتدىء أن يضرب الاسكندرية فدك حصونها فتارت نائرة العرايين على الحـديوى لفرحه بهذه الهزيمة لهم . ونووا له الاذى فـكان لبطرس غالى أكبر الاثر فى منع الاذى عن الحـديوى وكان يخاطـر بنفسه بين زعماء هذه الحركة وينصحهم كثيراً بالعدول عن نواياهم .

وتقهقر عرابى الى كفر الدوار غير ان الانكليز ذهبوا الى بورسعيد واسماعيلية مخالفين اتفاق حـياد قناة السويس ونزل الجند سائر ن صوب القاهرة فتقابلوا مع العرايين فى التل الكبير هازمين اياهم أثر خيانة بعض الضباط الشرا كسة فسار عرابى توا مع بعض الضباط الى القاهرة وجمع مجلسا كبيرا فى قصر النيل خاطبا فى الناس مخرضا اياهم على الدفاع ووافقه الحاضرين واستقر رأيهم على انشاء خط دفاعى حول ضواحي القاهرة .

ولم يوافقهم أحد الضباط خوفاً على القاهرة من التخريب وكان ينصره بطرس لاستحالة الدفاع أمام قوة الإنكليز وعرض عليهم أن يكتب الشيخ عبدالله نديم عريضة استرحام للخديوي فكتبها مظهراً فيها أن هذه الحركة لم تكن إلا برأى الخديوي فأبى عليهم بطرس هذا العناد فطلبوا منه أن يكتب هو لهم العريضة فكتبها هو ذا كراً فيها (قد أخطأنا في ما وقع منا . وزجو من ولى النعم العفو عنا) وذهب بها مع عبدالله نديم ورؤوف باشا حكم — دار السودان السابق الى سراي راس التين لاسترحام الخديوي وبذا خلص الناس من شر ثورة اخرى .

ثقة الخديوي : وثق الخديوي ببطرس كل الثقة اذ حدث عندما حصلت مذبحة الاسكندرية ان تداولت الوزارة في هذه الازمة وقررت تشكيل لجنة برئاسة عبد الرحمن بك رشدي وزير المالية للنظر في هذه الحوادث وعين بطرس باشا عضواً فيها فظهر نشاطه في هذه اللجنة جلياً وبعد ذلك كان عمله كله وساطه وحب للسلام واخلاص لصاحب العرش فلما انتهت الثورة أخذ في تميم ترجمة وتبويت القوانين المصرية التي صدر بها الامر العالي سنة ١٨٨٣ . ولا زال نفس هذا القانون هو المعمول به حتى الآن ولا زال القضاء حتى الآن يحكمون بموجب هذا القانون الذي وضعه بطرس . وكان مساعداً كبيراً للنظر في عمل القوانين واللوائح فشغل هـ — هذا المركز في وزارات شريف ونوبار الثانية ورياض الثانية ومصطفى فهمى الاولى حتى اختاره رياض باشا في وزارة المالية في ١٩

يناير سنة ١٨٩٣ وانعم عليه برتبة (روميلي بيكاريكي) .

ولكنه لم يمكث في هـ — هذه الوزارة الا سنة وبضعة أشهر فسقطت
وزارة رياض باشا وشكلت وزارة نوبار باشا الثالثة في ١٦ أبريل سنة ١٨٩٤
وعينه وزيراً للخارجية وفي هذا المنصب اثبت انه خليق بقول اللورد
كرومر عنه « ان وزير الخارجية ذو كفاءة عالية ونال لنفسه شهرة
بلغت حد الآفاق » (كتاب مصر الحديثة ص (١) جزء ثانى) .

اتجاهه السياسى : ان خير ما يعبر عن اتجاهه السياسى وتكوينه
النفسى فى الحكم بعد ذلك هو ما ورد فى (التراجم) عنه وهو :

« لعل الحوادث التى مرت بمصر وشهدها بطرس باشا قبل أن
يصل الى منصب الوزارة كانت ذات أثر كبير فى توجيه سياسته وزيراً .
فقد حضر نائباً عن الحكومة المصرية فى لجنة التصفية فوقف على ميول
الاجانب واطمأئهم . ثم رأى جهود الحديوى اسماعيل للوقوف فى وجهه
تدخلهم باسم مصلحة الدائنين تنتهى الى اقصائه عن العرش .

ثم انه حضر وشهد تطورات الثورة العراقية وما آلت اليه من تشيت
والحكم على زعمائهم بالاعدام واستبدال ذلك الحكم بالنفى . وكان بعد ذلك
على اتصال بالمؤامرات والحادثات التى حصلت بقصد جـ — لاء الحيوش
الانكليز عن مصر . وما كان من وعود الانكليز فى ذلك وتدخلهم برغم
هذه الوعد فى الشؤون المصرية ووضعهم يدهم على الادارة المصرية .
ثم كانت بعد ذلك حادثة فرمان الحديوى عباس ووقوف انجلترا فى وجهه

تركيا باسم الدفاع عن حقوق مصر . كما كانت حادثة الحدود واعتذار الخديوي عباس رغم اعزازه بما كنه الشاب للقائد ككتشنر . وبطرس باشا كان على ذكائه وقوة ارادته وسعة حيلته . رجل سلم وعميل مطمئن مما جعله بعيداً عن الحركة العرابية الى أن جاء دور السلم والوساطة . كما كان من طائفة الاقلية الدينية في وقت كانت النعرة الدينية فيه متغلبة على كل نعرة اخرى . أضف الى هذا كله انصالة بنوبار وتكوين عقله تكويناً سياسياً لا تكويناً شعبيّة مقصور غرضها على الدعوة للعزل الاعلى . هذه الظروف كلها تقصر لك سياسته من بعد ارتقائه الى منصب وزارة المالية سنة ١٨٩٣ وانتقاله الى وزارة الخارجية بعد ذلك وبقائه فيها حتي مع تقلده رئاسة الوزارة في سنة ١٩٠٨ وبرغم ما جرت به سنة الوزارات المصرية من تقلد رئيس الوزارة لوزارة الداخلية .

« وتشهد ظروف تقلده الوزارة بأنه كان برغم ما قدمنا من ميله للسلم والحيلة موضع ثقة الخديوي الشاب عباس . فلقد كانت أول وزارة اختير بطرس لها وزارة فخري مصطفى فهمي في سنة ١٨٩٣ رغم لورد كرومر والتي لم تبق لذلك في مناصب الحكم غير يوم واحد . ثم انه حل محل ثقته أن رأى فيه خير وسيط يحل المشاكلات التي كانت كثيرة الحدوث بينه وبين لورد كرومر . على ان عمله في وزارة المالية وفي وزارة الخارجية ظل عمل موظف أمين كفاء حريص على بقاء المساواة في المعاملة بين المصريين جميعاً من غير تمييز بينهم بسبب الجنس أو الدين . »

وجاء عنه في كتاب « موجز المقال في مشاهير الرجال »

« ونظرا للثقة الكبيره التي وضعها فيه الجنب العالي الخديوى . ولاعتقادهم بكفاءته النامة لقياده هذا المنصب فيما يعود على البلاد بالرعاية والسعادة ابقوه وزيرا للخارجيه فكان فيها قطب الدهاء . وسياسى يندر وجوده . يحيط به اربعة عشر دولة قوية لها مصالح واموال . فكان الجمع بين هذه المصالح المتعدده . والتوفيق بين تلك المنافع المتشعبه . من اقدر آيات الزمان التي لا يمكن ان يوصفها بنان فضلا عن وجود الاحتلال الانكليزى . وسيطرة عميده الاكبر فكان واسطه فيه خير لمصر . ومنع الضرر عنها بقدر ما وسعته طاقته وفتقت له حيلته

وقال عنه العميد البريطاني « انه لشوكة في جنب المصالح الانكليزيه ولاكنه بكياسة يرغمنا على الاعجاب به »

ولقد امضى في هذا المنصب المعاهدات التجارية بين جميع الدول الاجنبيه . وفي ١٩٠٤ اتفق مع الحكومه المحتله (انكلترا) على اطلاق يد الحكومه المصريه من الاثر المالى الذى كانت فيه كيـفـشـائـت بلا منازع بعد ان كانت يدها مغلوله عنه

اتفاقية السودان : وكان للقلاقل التي حدثت في السودان الاثر الكبير في تفكير الانجليز في اخلائه فاشاروا على مصر بالاخلاء وانتدب كسترن لذلك ثم عاود الجيشان المصري والانجليزى فتح السودان ثانيه فاستعادوها غير ان مصر تلفتت حولها لتستعين بالدول الحليفه

كتركيا وفرنسا فلم تجد منها التفاتا فلم يسعها ازاء النفود الانجليزى الا أن تستسلم .

« قد نعجب اذ نرى بطرس غالى ولم يكن في سنة ١٨٩٩ الا ناظراً للخارجية متضامنا مع سائر زملائه النظار في سياسة الدولة العامة يحمل وحده وزير هذه الاتفاقية . فاخلاء السودان سنة ١٨٨٤ بأمر انكلترا واستعادة فتحه بعد ذلك بأمر انكلترا ايضاً . لم يكن من عمل ناظر الخارجية وحده . بل كان من عمل مجلس النظار كله . وقد كان بطرس وزير المالية سنة ١٨٩٣ مع نخـري ثم مع رياض ثم انتقل الى وزارة الخارجية مع نوبار سنة ١٨٩٤ فظل فيها مع مصطفى فهمي لما الف وزارته الجديدة . وفي هذه الاثناء كانت الاعمال لاستعادة السودان جارية حتي سقوط الخرطوم وام درمان وتمت استعادة السودان في سنة ١٨٩٨ فهل يسأل وزير الخارجية وحده اذ هو وقع بعد ذلك اتفاقاً باسم الحكومة .

كان خصومه يقولون : ولكنه المسئول الاول والمباشر . فهو الذي وقع باسمه ويده ثم انه فضلا عن ذلك كان أكثر من كل الوزراء الذين معه مسئولية لانه كان أقواهم وأذكاهم وأقدرهم . بل لعله هو الذي أقنعهم بالقبول . وماذا تريد من مصطفى فهمي والذين كانوا معه وهم كانوا مثل الاستماتة والضعف . لقد كان بطرس هو العنصر القوي الوحيد فيهم فهو لذلك مسئول دونهم . ثم لنقل الحق ايضاً . ان بطرس كان قبطياً . وكان للاقباط زعيما والاقباط كانوا يومئذ وفي نظر دعاة الحركة الوطنية

المصرية مهمين بمالاه الانكليز على بلادهم . فبطرس اذن قد وقع اتفاقية السودان بمالاه للانكليز وتقريراً في حقوق بلاده . كذلك كان يقول خصوم بطرس . وكذلك ما يزال البعض يحسب . ولو في دخیلة نفسه حرصاً على وحدة الامة المقدسة في الايام الحاضرة . لكن للتاريخ حكماً آخر تجب المجاهرة به احقاقاً للحق . فمصر يوم اتفاقية السودان كان تابعة لتركيا وكانت لا تستطيع أن تمضي اتفاقاً تنقص به من سلطتها أو سيادتها على أي جزء من الاجزاء النابتة لها . أو التي كانت تابعة لها وعادت اليها . وقد أبلغت الحكومة المصرية حكومة الباب العالي ان انكلترا تريد أن تتفق مع مصر اتفاقاً مقصوراً على ادارة السودان لتتمكن بذلك من الغاء الامتيازات الاجنبية فيه . ولتستطيع بما تبيحه لها الشركة في الادارة أن تسهر على أملاكها الافريقية من غير أن يضر ذلك حقوق مصر في السودان باعتباره ولاية منها تابعة لحكم الخديوي . وبالرغم من تكرار الكتابة في هذا الامر الى الحكومة التركية فانها لم تحرك ساكناً . ولم تشر للنصيحة ولم تظهر مجرد استعدادها لتعزید مصر اذ هي وقفت بازاء انكلترا موقفاً خاصاً . وعلى ذلك الفت مصر نفسها وحيدة بازاء انكلترا مضطرة أن تحل معها هذه العقدة بعد أن كانت فرنسا قد ضربت قبيل ذلك في حادثة فاشوده وتضعضع سلطانها بما قطع كل رجاء في مداخلتها كما انقطع الرجاء في مداخله غيرها من الدول مع هذا لم يخرج اتفاق يناير سنة ١٨٩٩ السودان من ولاية الخديوي

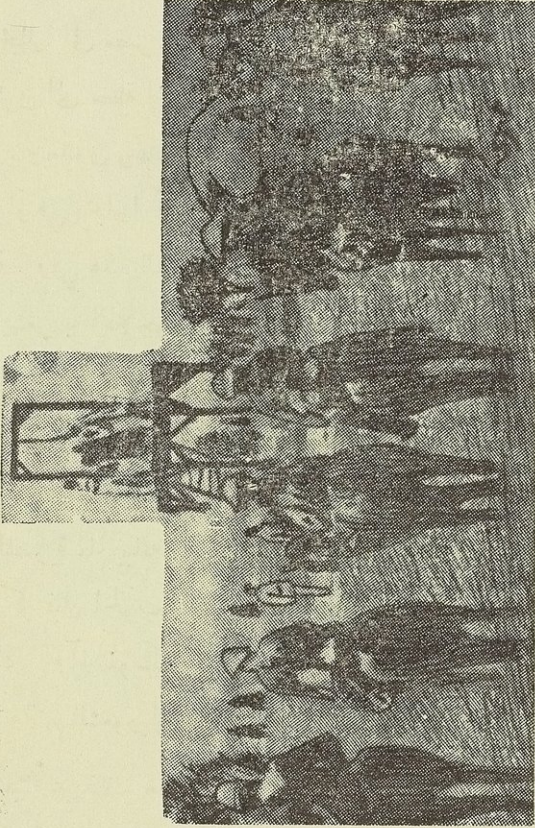
ولم يجعل انكلترا شريكاً فيه . بل هو اتفاق مقصور على ادارة السودان
بنصه وتفسير لورد كرومر وغير لورد كرومر من الكتاب الانكليزي
وساستهم وتنفيذه في المدة التي تلت عقده . فقد كان حاكم السودان العام
برغم أنه حاكم عسكري في بلاد خاضعة للحكم العرفي . لا ينفذ أمراً ولا
ينشر قانوناً الا بعد أن يبعث به الى مجلس النظار في القاهرة . وبعد أن
يرد المجلس اليه الامر أو القانون أو الارادة السنية كما هي أو منقحة
حسب ما تراه الوزارة المصرية . فاذا كان قد حدث بعد ذلك ان استفادت
السلطة الانجليزية من ضعف الوزارات التي وليت الحكم في مصر وان
مدت ادعاءاتها الى أكثر مما يبيحه الاتفاق المذكور فليس الذي وقع
الاتفاق في الظروف التي اشرنا اليها مسئولاً عن شيء منها .

هذا هو حكم التاريخ . وهو الحق في أمر اتفاقية السودان وموقف
بطرس باشا غالي منها . على ان ما تلاها من نشاط الحركة الوطنية بزعامة
مصطفى كامل ومن طمنها على المعاهدة وانحازها ذريعة الهجوم والمقاومة
جعل الوزارة المصرية أشد ميلاً للتفاهم مع الانجليز تفاهماً يخفف مدة هذه
الحركة ان كان ذلك مستطاعاً . ويقف في وجه هذه الثورة التي تهدد
النظام والامن . تجامل رؤساء الوزارات المصريين الحكومة الانجليزية
بإعطائهم لاتفاقية السودان معنى غير معناها الاول يخول لانكلترا فيه
سلطاناً لم يقصد الاتفاق تخويلها اياه .

ولنقدم البرهان العملي على صدق القول نستشهد بتمسك الجبهة الوطنية

في مفاوضات سنة ١٩٣٦ وعلى رأسها الزعيم الجليل مصطفى النحاس باشا بتلك الاتفاقية بالرغم من أن الانكليز سبق وقطعت المفاوضات سنة ١٩٣٣ بسببها . وإنما كان ذلك لعرفانهم بما تثبته من الحق لمصر على السودان وكما ان الوفد المصرى وعلى رأسه سعد زغلول زعيم الوطنية . لم يقل فى وقت من الاوقات المفاوضة بخصوص السودان على اساس هذه الاتفاقية على انها أعدل أساس وأحسن مقياس للحكم .

حادثة دنشواي : فى الظروف الماضية كان سلطان الانجليز فى مصر قد بلغ أقواه وأشدّه . فلم يكن أمر ما مهما بلغت تفاهته يبرم أو ينقض من غير اقرارهم عن طريق موظفيهم الذين كانوا متغلغلين فى الوظائف الحكومية . بل بلغ بهم الامر ان كان الموظف المصرى مهما سمت مرتبته وعظم مركزه ليس له الحرية ليبت فى أى عمل بلا مشورة الموظف الانجليزى الذى فى مصلحته أو وزارته مهما كان مركز هذا الموظف الانجليزى صغيراً . فقد كانت انجليزيتة أحسن كفيل له بحشر أنفه فى كل شيء . فكان الامر والنهي ليس موقوفاً فقط على العميد الانجليزى بل فعدها الى مستشار الداخلية والى كل انجليزى فى مصر حتى ملاحظ الطرق والمدرس فى وزارة المعارف وازاء هذا السلطان الانجليزى فى مصر كانت الحركة الوطنية المصرية تنمو وتقوى . وكانت الثورة النفسية تتفاعل فى نفوس الشعب الوداع المطمئن الذى لا يقبل مذلة ولا خضوعاً فى ثورات النفوس وكادت أن تفيض .



المشفقة تعمل عملها في دنشواي أمام الاهالي وبجراحة الجنود الانجليز

حتى كانت سنة ١٩٠٦ اذ علم الانجليز لأول مرة ان أعيان المصريين الذين حسبوهم بمعزل عن الحرية الناشئة يؤازرون الحركة من أعماق قلوبهم ولا يحجمون عن التصريح بتأييدها في الآونة المناسبة . فلما حضر ولي عهد إنجلترا الى مصر . كتب اليه جماعة الاعيان يذكرونه بوعود الجلاء ويومئون الى خطة إنجلترا في معاملة البوير بالحسنى بمد هزيمتهم في ميدان القتال . ويعلنون رغبتهم في استقلال الحكومة المصرية راجين من حكومة الاحرار في إنجلترا أن تكون على مبادئها فلا تنكر على مصر حقها في الحرية . وفي هذه السنة وقع الحادث الاكبر الذي علم منه حقيقة الشعور الذي يشعر به الفلاحون الصغار لابسى الجلايلب الزرقاء نحو الاحتلال البريطاني . بعد ما حسبوهم زمنا طويلا من انصارهم الراغبين في حمايتهم لهم من ظلم الباشوات ومفاسد الحكومة الوطنية . . ونعى به ذلك الحادث الفاجع الذي اشتهر باسم قضية دنشواي . والذي كان له الاثر في ايقاظ الامة المصرية ما لم يبلغه أثر أي حادث آخر . اذ ليس في مقدور مؤرخ أن يذكر قبل الحرب العظمى حادثاً جمع قلوب المصريين كما جمعها قضية دنشواي . وآلم نفوسهم كما آلمتهم . وأحيا شعور التضامن القومى كما أحياه بينهم . والتمهم الشعور الخيث الذي يثيره بعض من لاضمير لهم فوحدت قلوبهم وينبتأ عن ذلك بعض النبأ ما كتبه قاسم أمين في مذكراته حيث يقول « رأيت عند كل شيخص تقابلت معه قلباً مجروحاً وزوراً مخنوقاً مبجوحاً . ودهشة وعصبية بادية في الايدي والاصوات . كان الحزن

على الجميع . حزن ساكن مستسلم للقوة مختلط بشيء من الدهشة والذهول
رى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة منظرهم
يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت كأنما أرواح المشنوقين تطوف في كل
مكان من المدينة .

والمواقع ان قضية دنشواي كان ازاء تأثيرها البشع لها تأثير طيب .
اذ آمن مستعمري الانجليز بعدهم — بالقوميه المصرية ايماناً لا يجدي فيه
التجاهل . وعلموا ان الفلاح وابن المدينة المتعلم في الشعور الوطني سواء .
وان اصطناع المودة للفلاحين لا يجلبهم انجليزاً ولا ينسيهم انهم مصريون
ورأوا رأى العين نفور أصحاب الجلايلب الزرقاء منهم اذ انما رأوا على
أرضهم وأرض آبائهم وأجدادهم . فخنضوا قليلا من دعواهم ان الفلاحين
يحبونهم . أما تبسيط الحوادث نفسها فهو حسب ماورد في احدى الجرائد
اليومية الكبرى كالآتي :

في ١١ يونيو سنة ١٩٠٦ غادرت فرقة من الحيش الانجليزي القاهرة
تقصد الاسكندرية بطريق البر وبعد أن قطعت في سيرها يومين وصلت
الى ناحية كمشيش التابعة لمركز تلا من مراكز مديرية المنوفية . وفي
صباح يوم الاربعاء ١٣ يونيو وكان القومندان هو الميجر بين كوين قد
سبق له ان اصطاد الحمام من ابراج قرية دنشواي في أعوام سابقة
فاقترح على بعض رفاقه وهم الكابتن بول والضباط بورتير سميث والدكتور
بوستك طبيب الفرقة أن يذهبوا الى دنشواي لوفرة الحمام فيها ولقربها

من النقطة التي عسكرت فيها الفرقة .

استعدادات وأوامر : وكانت قد جرت العادة بان تصدر الاوامر الى عمد البلاد التي تمر بها فرقة الجيش (جيش الاحتلال) لمساعدة الجنود عند الحاجة . فلما وصلوا الى منوف أبلغوا مأمور المركز اهم يرغبون الصيد في دنشواي . لتعد لهم المعدات اللازمة . ثم قاموا بعد ذلك من كمشيش حيث عسكرت الفرقة واتجهوا الى دنشواي في مركبات أعدها لهم عبد المجيد سلطان بك من أعيان الناحية . ولكن حدث - لسوء الحظ - ان ضابط بوليس النقطة التي تقع دنشواي في دائرتها كان مهتما بتحقيق جنائية كبيرة وان مأمور مركز شين الكوم كان مشغولا باطفاء حريق شب في عاصمة المديرية ودمر عدد كبير من المنازل . كما ان عمدة دنشواي وكان اسمه محمد الشاذلي كان مدعوا الى المركز لحضور اجتماع احدى جمعيات العمد واكتفى ضابط البوليس بتكليف الاومباشي احمد حسن بالذهاب الى دنشواي واعطاء الاوامر بالمحافظة على الضباط الانجليز عند حضورهم . واتجه الاومباشي فعلا الى القرية ووجد الشيخ عمر زايد نائب عمدة القرية فأبلغه أمر الضابط كما أبلغه الى شيخ الحفراء عامر عدس . ولما وصل الضباط الانجليز الخمسة الى دنشواي قسموا أنفسهم الى قسمين قسم وقف على السكة الزراعية لصيد الحمام كما سبق لهم أن اصطادوه في دنشواي من سنوات سابقة . ولم يفكر أحد في الاعتداء عليهم . وقسم آخر هبط الى القرية . وجاس خلال اجران القمح التي كانت تمتلئة وقتئذ

كيف حدثت الذكبة : وحدث ان حمامتين كانتا واقفتين على جرن محمد عبد النبي المؤذن وكانت ام محمد زوجة محمد عبد النبي جالسة على النورج تسوق المواشي . وكان شحاته أخو زوجها عبد النبي يصلح القمح تحت عجلات النورج . فأقبل أحد الضباط الانجليز وأطلق بندقيته على الحمام الذي على الجرن فصاح به شحاته أن يكف عن ذلك خشية احراق الجرن . ولكن الضابط لم يعبأ بكلامه أو لعله لم يفهم ما قاله شحاته واستمر في الطلاق الرصاص قاصداً اصطياد الحمام . فأخطأ المرمى وأصاب أحد الاعيرة أم محمد فصرخت وسقطت على الارض واشتعل الجرن . وعندئذ أخذ شحاته يصيح ويستغيث معتقداً ان زوجة أخيه قد ماتت وأمسك بالضابط الانجليزي وقبض على البنودقية مستمراً في الصياح والاستغاثة حتى أقبل أخوه محمد عبد النبي زوج أم محمد . كما أقبل باقي الضباط الانجليز لانقاذ زميلهم . وتجمهر صبية القرية وأطفالها . واتصل الخبر بشيخ الخفراء عامر عدس فحضر ومعه محمد شحاته داود الخفير وبعض الخفراء الآخرين لمنع الاهالي من الابتداء على الضباط الانجليز ولكن الضباط توهموا خطأ ان الخفراء يريدون الفتك بهم فأطلقوا النار وأصاب عيار ناري منها شيخ الخفراء عامر عدس في فخذه الايسر وسقط على الارض كما أصاب عيار آخر الخفير محمد شحاته داود . وثالث أصاب على الدبشة :

ظروف الحادث السيئه : اعتمد الجميع ان شيخ الخفراء عامر قد

توفى فأخذ الصبية يلقيون الطوب على الضباط الانجليز . كما اعتدى عليهم بعض الاهالي بالعصي فاصيب الميجر بين كوفين في ذراعة وجرح الضابط سميت جرحاً خفيفاً . ولحسن الحظ لذين الضابطين ان الحفراء احتجذوهم مع ضابط ثالث وأخذوا الاسلحة منها حتى حضر ضابط البوليس فأوصلهم الى المعسكر . أما الضابط الانجليزي الكابتن بـول والدكتور بوستك فلما رأيا تجمعهم الاهالي تركا دنشواي وأخذوا يعدوان حتى قطعاً نحو ثمانية كيلو مترات في ذلك الجو الشديد الحرارة وكان الكابتن بول قد اصاب في رأسه وهو في دنشواي اصابة شديدة . من حجر قذفه عليه أحد الاطفال ولذلك لم يكد يصل الى السوق التابع لشركة الاسواق على مقربة من سرسنا حتى كان الاعياء قد بلغ منه أشده فسقط على الارض مغشياً عليه من تأثير شدة حرارة الشمس واصابته في رأسه ولم يلبث أن توفى بعد قليل . أما الدكتور بوستك فيقال انه ترك زميله وتابع العدو حتى وصل الى ترعة الباجورية فسبحها حتى عبرها الى الضفة الاخرى حيث معسكر الفرقة الانجليزية فأخبر اخوانه والجنود بما حدث فخفوا بالتقصان والسراويل والاسلحة عدوا الى السوق فوجدوا الكابتن بول ملقى طريحاً على الارض حيث تركه زميله . وقد اجتمع حوله بعض الاهالي . فلم يكد بصرهم يقع على الجنود الانجليز حتى خافوا وأسرعوا بالدخول في السوق . وهنا اهتم بعض الجنود بضابطهم المصاب وحملوه الى المعسكر .

فضائع : واقتفى البعض الآخر أثر الاهالي الذين دخلوا السوق

وقبضوا عليهم وأوثقوا كتاف أربعة منهم . الا أن رجلا خامسا من اهالي سرسنا يدعي سيد احمد سعيد لم يستطيعوا شد وثاقه فافلت منهم وهرب الى داخل السوق وأخذ يعدو حتى وصل الى طاحونة أعدتها شركة الاسواق لتجربة المواشي التي تباع في السوق . الا ان ذلك لم يمنع عنه القضاء المحتوم فقد قتله الانجليز شر قتلة ظنا منهم انه اشترك في قتل ضابطهم « وجعلوا أكبر قطعة في رأسه في حجم القرش » على حد قول احدى المجلات .

واتصل خبر حادث دنشواي بأولى الامر في وزارة الداخلية فظهر اهتمام غير عادي اذ انتقل مدير المنوفية ورئيس نيابتها ومأمور المركز وعدد كبير من ضباط المديرية وجنودها المسلحين . كما حضر من القاهرة مستشار الداخلية الانجليزي واحد مفتشيها . وبدأوا التحقيق في سرسنا وقبضوا على بعض أهلها ثم انتقلوا الى دنشواي حيث كانت القوات العسكرية قد سبقتهم اليها والقت الرعب في نفوس أهلها وأمر المحتقون بالقبض على عدد كبير من اهالي البلدة وخاصة من كان ينتمي منهم الى اسرة محفوظ التي كان يرأسها حسن على محفوظ وزجوا في مسجد القرية الذي تحول الى سجن بأمر المحققين . وشعر الاهالي بهول الخطر الذي يهدد ابنائهم فأخذوا يصيحون ويملاؤن الجوباء وعويلا . ولم يستطيع المحققون ان يستمروا في تحقيقهم ازاء تلك المناحات التي سادت القرية فاضطروا الى الانتقال الى عزبة حسين بك سعيد

بلاغ الحكومة عن الحادث : واصلت الحكومة بلاغاً عن الحادثة وكان بلاغاً مطولاً جداً يشعر بالاهمية والخطورة اللتين ارادت الحكومة أن تضيفها على الحادث . ويلاحظ في هذا البلاغ ان الحكومة جازمت بأن الانجليز لم يبدأوا الاعتداء على الاهالي وهي نقطة لها خطورتها القصوى في مجرى الحادثة وتطورها كان يجب ان يتركها البلاغ الى تقدير الحكومة التي ستفصل في القضية . ولم يكتب البلاغ بذلك بل جزم كذلك بأن الاعتداء على الضباط الانجليز كان عن تعمد وان الاهالي هم الذين اشعلوا النار عمداً في جرن محمد عبد النبي المؤذن . اشاره للابتداء بالهجوم العمومي . اما مسألة قتل سيد احمد سعيد من اهالي سرسنا وهو الذي تبعه الجنود الانجليز الى داخل السوق وقتلوه في مخبأ بالطاحونه شر قتلة . فقد ذكر البلاغ ان جثته « وجدت في نقره في احدى زوايا السوق » وقد قرر الكاتب بوستك وطبيب المركز اللذان عاينا الجثة بعد هذه الحادثة بعشرين ساعه ان الوفاة ناشئة عن ضرب القتل بآله حادة

محاكمة المتهمين امام المحكمة المختصة : ولعل الطريقة التي حوكم بها المتهمون في حادثة دنشواي هي اظهر صفه تميزت بها تلك الحادثة المشؤومة فقد رأينا انها لا تعدو حضور اربعة ضباط الى القرية لصيد الحمام من ابراجها فاذا سلمنا جدلاً بصحة الوقائع التي نسبت الى المتهمين فقد كان واجباً أن تحقق معهم سلطات التحقيق العادية المألوفة في مصر ثم يقدمون الى الجهة القضائية صاحبة الاختصاص الاصلي . ولكن الانجليز

ارادوا المغالبة في الثأر ظناً منهم ان هذا فيه اقراراً لهيبتهم فعمدوا الى نبش لائحة قديمة — كان اللورد كرومر قد أرغم الحكومة المصرية على اصداها . وهي لائحة المحكمة المختصة التي تنفذ أحكامها فوراً ولا تقبل طعناً . ولا هي مقيدة باحكام قانون العقوبات . بل تحكم في الجنايات والجنح بالعقوبات التي ترى لزوم الحكم بها بما في ذلك الاعدام .

وبالفعل عقدت المحكمة المختصة لمحكمة المتهمين في حادث دنشواى - وعدددهم ٥٢ متهمًا - في سراي مديرية المنوفية في صباح ٢٣ يونيه سنة ١٩٠٦ وكانت الجلسة برئاسة بطرس غالي باشا وزير الحفانية حينذاك وعضويه مستر جود المستشار القضائي بالنيابة ومستر بوند وكيل محكمة الاستئناف الاهلية العليا والسكونيل لادلو القائم باعمال المحاماه والقضاء في جيش الاحتلال واحمد فتحى زغلول بك رئيس محكمة مصر الابتدائية وعثمان مرتضى بك سكرتير الجلسة . ووقع الاختيار على ابراهيم الهلباوي بك المحامي ليكون ممثل الاتهام وليثبت النهمه على المتهمين لقاء ٣٠٠ جنيه حتى قال له الشاعر المروف حافظ ابراهيم بك .

انت جلا دنا فلا ننسى انا قد لبسنا على يدك الحدادا

قرار طبيبين انكليزيين : ولا يتسع المجال في هذه الصفحات لسرد جميع الاجراءات والشهادات التي استغرقت المحكمة في سماعها ثلاثة أيام كاملة . ولكننا نكتفى بأن نذكر ان الدكتور بوستك طبيب الجيش

الذي كان بين المجني عليهم كان يتجلى مـيـله الى الصدق وعدم رغبته في تقرير امور لم يكن في امكانه أن يقطع بها وبصحتها وانه قرر انه كشف على الكابتن بول فرأى ان سبب الوفاة هو من احتقان في المنخ ومن ضربة الشمس . ثم شهد الدكتور نولان الطبيب الشرعي الانجليزي بأن الضربة التي أصابت الكابتن بول - وهو الانجليزي الوحيد الذي توفي في الحادثة - هي التي جعلت الشمس تؤثر بسرعة في المنخ . فضربة الشمس هي السبب المباشر للوفاة . وهنا سأله رئيس الجلسة بطرس غالي عما اذا كان يعتقد انه اذا لم تحصل ضربة الشمس هل كانت تحدث الوفاة من اصابة الحجر في الرأس ؟ فأجاب الدكتور « لا تحصل الوفاة من الاصابة »

وعاد بطرس غالي السؤال . هل اذا لم تحصل اصابة الرأس بالحجر أكانت ضربة الشمس تكفي وحدها لوفاته ؟ فقال « انها كافية » وبرغم هذه الشهادة وغيرها . وبالرغم من ميل بطرس غالي الواضح لانصاف المتهمين واحقاق العدل . موضعه فقد طلب الهلباوي وأصر في مرافعته على الصاق تهمة القتل والاعتداء تعمداً بالاهاالي المساكين وطلب الحكم عليهم باقصى العقوبات ومنها الاعدام .

وفي يوم ٢٧ يونيو سنة ١٩٠٦ اجتمعت المحكمة لاصدار الحكم وبتأثير الاغلبية الانجليزية صدر الحكم بجميع الاصوات ماعدا صوتي بطرس غالي وفتحني زغلول حكماً يقضي باعدام أربعة من المتهمين اعتبرتهم زعماء للاخـرين وهم حسن محفوظ ويوسف حسين سليم والسيد احمد محفوظ

وشجاته عبد النبي المؤذن وبجلد ثمانية آخرين أمام الفلاحين .

وليتصور الفاريء وقع هذا الحادث الاليم في نفوس المصريين ويعينه على التخيل معرفه طريقة التنفيذ . فقد كان الموظفون الانجليز الذين أقلقهم بؤادر الوثبة الوطنية يتوقون الى مناسبة يضربون فيها الضربة المصمية ويثبوت فيها رهبة الدولة البريطانية فلم يترددوا في اغتنام هذه المناسبة وأصدروا الاوامر بارسال المشانق وأدوات التعذيب الى دنشواي قبل انتقال المحكمة . وبعد يومين اثنين من وقوع الحادث كانت المحكمة قد انعقدت وكان الحكم قد صدر وكان المستشار الانجليزي قد صمم أن لا يرجع الى القاهرة الا بعد تنفيذ بين الجند المسلح على مرآى من الآباء والابناء والاقارب والازواج . وازدادت شناعة الحكم بشناعة التنفيذ . فكان المشنوق ينظر الى الجمهور والجمهور ينظر الى المشنوق . والشيوخ والاطفال والنساء ينظرون من قريب الى المشنوقين والمجلودين بين صفوف الجند المحدثين بهم وهم يقعون بالبنادق والسيوف . والمستشار في خيالاته يحول بينهم ويصول .

لقد أقسم لي صديق لابي انه كان يستمع للنبأ هو وثلاثة آخرون فأغنى على أحدهم ولم يستمع لباقي الخبر والراوي يحكى لهم بصوت متهدج مخنوق باعبرات . وحسب الفاريء أن يعلم ان هذا الحادث الذى سبب غضب الامة هال الوزراء البريطانيين أنفسهم وزعزع بينهم سمعه كرومر بعد طول الاعجاب به الاعتماد عليه . ودق المسامير الاخيرة في نعش

سياسته المصرية فعاد الى القاهرة مقسوراً على اتباع سياسة جديدة غير سياسة التجاهل والكبرياء . ولم يكن يدري انها سنته الاخيرة التي عزل من بعدها . واذيع خبر عزله قبل أن يعلم هو به . ولولا عادة الحكومة البريطانية أن تدارى هزيمة رجالها لعزلته عقب الحادث . بغير ابطاء لفرط ما فاجأها من سحق الاممة المصرية وسخط الذين سمعوا به في أوروبا وبالاخص في انجلترا نفسها بل ولم يسعها سوى الموافقة على العفو عن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة .

رياسته للوزارة : بقيت في الحكم وزارة مصطفى باشا فهمي ١٣ سنة وبطرس باشا غالي وزيراً للخارجية أتم فيها كثير من الاعمال الجليلة ورد ذكر بعضها فيما قبل واستقالت الوزارة في ١٠ نوفمبر سنة ١٩٠٨ فكلف الحديوي بطرس غالي باشا بتأليف الوزارة الجديدة وها نص الخطاب السامي :

سعادتو بطرس باشا غالي حضر تلري .

بناء على ما هو معلوم فيكم من الكفاءة والدراية ووثوقنا بكم قد وجهنا لعهديكم مسند رئاسة مجلس النظار لحكومتنا وعلى هذا تكلفكم بتشكيل هيئة نظارة جديدة . وكونوا على يقين من تعاضدنا ومساعدتنا اياكم في جلائل الاعمال التي عهدنا بها اليكم ونسأل الحق جلت قدرته أن يوفقنا جميعاً لما فيه خير البلاد ورفاهية العباد انه نعم المولى ونعم النصير
عباس حامي

وها نص الرد الرسمي :

مولاي ، تفضلت ذاتكم العلية بتوجيه رياسة مجلس النظار الى عهدني
وكلفتني بتأليف هيئة نظارة جديدة . فأتشرف أن أرفع الى مقام سموكم
اسماء من تشكل منهم هذه الوزارة . وهم أصحاب السعادة :

سعد باشا زغلول . ناظراً للمعارف العمومية - حسين باشا رشدي .
ناظراً للاحقانية - محمد سعيد بك . ناظراً للداخلية - اسماعيل باشا
سري . ناظراً للاشغال العمومية وللحربية والبحرية - احمد حشمت باشا .
ناظراً للعالية .

فان حازت هذه التعيينات القبول لدى سدتكم العلية . أتمس صدور
الامر الكريم باعتمادها وتقليدي نظارة الخارجية كما تعطف جنابكم الرفيع
وعهد الى رياسة مجلس النظار واني مع غاية الاجلال لمولاي
بطرس غالي

وصدر الامر العالي في ١٢ نوفمبر سنة ١٩٠٨ باعتماد الهيئة الجديدة
واعتماد تشكيل وزارة بطرس غالي باشا . ولما تشرف بعد ذلك النظار
بمقابلة الخديوي شاكرين قال عن بطرس غالي باشا « اني أخذته لرياسة
الوزارة لانه طويل الخبرة في أعمال الحكومة ولانه مخلص لبلادي
ولشخصي وطالما كان عوني في صعاب الامور وشدائد الاحوال »

أهم أعماله : أعماله في رياسة الوزارة لا حصر لها اذ تتفق كثرتها
رغم المدة القصيرة التي تولى فيها الرياسة مع نشاطه وذكائه وخبرته مع

الحب الذي يكنه في قلبه لوطنه .

مجلس الشوري : سعى جهده الى التوصل لحكم الامة ورقابة النواب للحكومة فعمل على تحقيق رغبة الامة وابديء باقتراح تعيين البرنس حسين باشا كامل رئيساً لمجلس الشوري (السلطان حسين كامل فيما بعد) ووافق الحديوي وأصدر أمره في ٣٠ يناير سنة ١٩٠٩ فاكنتسب مجلس الشوري هية وسلطة وقوة . وتبع هذا العمل بتنفيذ احدى مواد القانون النظامي للمجلس الخاصة بحضور الوزراء جلسات المجلس وفي ٥ ديسمبر سنة ١٩٠٨ أحضر النظار معه والقى على أعضاء المجلس خطبة جاء فيها :

« ان المادة ٢٧ من القانون النظامي أجازت للنظار الحضور في جلسات مجلس الشوري والاشتراك في مداولاته برأي شوري . ولما كان الغرض من ذلك هو أن يوجد دائماً تفاهم بين هيئة الحكومة وبين أعضاء الشوري في درس المشروعات التي تعرض عليهم . فلهذا قد عزمت أنا ورفقائي على حضور جلسات المجلس وأتعلم أنه بهذه المشاركة تتقوى ثقة كل منا بالآخر . ويزول سوء التفاهم الذي كان يوجد دائماً عدم تمكن حضراتكم من أخذ الايضاحات التي ترون لزوم طلبها من النظار »

ثم تبع ذلك بأصدار أمر يجعل جلسات المجلس علنية حتى يحقق رقابة الامة ويقويها وأخذ في تحضير مشروع قانون لتوسيع اختصاصات مجلس المديریات .

ولما كانت الحركة الوطنية في مصر قد ابتدأت أن تشتد فقد اتخذها

بطرس ذريعة وسعى سعيه لدى معتمد انكلترا في المطالبة بالدستور وانشاء نظام يقرب مصر من الحكم الذاتي .

أما مشروع مجالس المديریات السابق ذكره فقد أصدر به أمراً في ١٣ سبتمبر سنة ١٩٠٩ وفيه توسعت سلطة هذه المجالس فكان لها الحق في فرض ضرائب معلومة على الاطيان لصرفها في المنافع العامة وخصوصاً التعليم وكانت هذه خطوة طيبة له تذكر ازاء مجهوده القيم في سبيل اشتراك الامة مع الحكومة في أعمالها وهو مجهود لم يكن أحد يحلم به أو يقوي على تنفيذه سوى بطرس الجيار . ومما يذكر له في هذا السبيل انه خاف من رفض مجلس الشورى لهذا القانون فحضر بنفسه الى المجلس حيث وضع لهم الامر . ورد على المعارضين الذين كان كل منهم ضياع الصالح العام بعدم افلات هذه السلطة من يدهم فأقنعهم وأفهمهم فوافق المجلس بالاجماع فكان هذا فوزاً عظيماً له يذكر على انه مثال على قوة حجته .

وفي عصره أضحت الجرائد والمجلات تتكلم بملء الحرية وتنتقد السياسة غير ان بعض المجلات كانت تنتقد سياسته بلا مبرر وتحمل حملات شعواء على كرومر فلم يتسع صدر كرومر كما اتسع صدر بطرس فاستصدر أمراً خديويًا باستعادة قانون سنة ١٨٨٢ للصحافة الذي يبيح للإدارة حق انذار الصحف الجريئة وتعطيلها . ولما كان بطرس كل همه المطالبة بالحكم الذاتي لمصر . فقد سكت عن المعارضة على أن يجعل هذا الامر تكافؤاً لنوال مطالب مصر . وأصدر هــو أيضاً قانون النفي الاداري

لأرهاب الجناة فظهر تأثيره الكبير في تقليل الجرائم واستتباب الأمن .
 واستمر يتابع بالاتفاق مع المعتمد الانكليزي وبرضاء الحديوي وموافقة
 زملائه الوزراء وضع النظام الجديد للهيئة النيابية المصرية . وفي مدة حكمه
 طلبت شركة قناة السويس مد امتيازها لاربعين سنة فوعد بالموافقة اذا
 وافقت الجمعية العمومية المصرية على أن يكون رأيا فاصلا . وترك الموافقة
 لمجلس الشوري .

وذكر اللورد كرومر في خطبته المشهورة بدار الاوبرا في حفلة —
 الوداع التي عملت له يوم السبت ٤ مايو سنة ١٩٠٧ بمناسبة مغادرته الديار
 المصرية وقال :

« وقد كان لحسن حظ مصر وحظي أنا أيضاً ان عاشرت لزمناً
 طويل وزير الخارجية الحالي عطوفة بطرس غالي باشا الذي كان ذكأؤه
 الفائق سبباً في حل كثير من معضلات المسائل التي كان مركز هذه البلاد
 السياسي الخصوصي يحتم وجودها في كثير من الاحيان » .

وقال عنه الحديوي : « ان حبه لوطنه لا يزيد عنه سوى اخلاصه
 الحقيقي لى » .

واتفق في ذلك الجميع حتى هؤلاء الذين عادوه غيرة منه ومن عظمتهم
 لم يسمعهم أن يشكروا اخلاصه لوطنه وحبه له .

ومما يذكر عن مآثره في حل المشكلات انه اغتم ذهابه بجمعية الحديوي

الى الاستانة سنة ١٩٠٥ وتشرف بالمشول لدى جلالته السلطان وجرى الحديث بينهما بالتركية فحل مشكّة دير السلطان بالقدس . وكان للتخديوي ثقة كبيرة فيه ويعول عليه في الامور الهامة ولذلك كان أسفه كبيراً لاغتياله فتنازل لزيارته وهو مريض في المستشفى ثم زاره في بيته بعد الوفاة لتعزية أبنائه وأخيه . وهذه عناية لم يسمع بمثلها في مصر لان سموه لم يزر أحداً من سكان مصر غير اللورد كرومر قبل سفره مرة واحدة وكانت زيارة رسمية وكان يميل كثيراً للمطالعة في ساعات الفراغ وأكثر مطالعته في التاريخ وكان له ميل للمواضيع الفلسفية النظرية وكان في داره مكتبة نفيسة أكثرها كتب قضاء وتاريخ وسياسة وادب وفلسفة وكان يطالع الصحف كل يوم ويروي انه كان يطلعها بسرعة غريبة فيستوعبها .

ومن الامثلة الطيبة التي تحكي عنه . انه زوج بعض انجاله فأبى أن يقيم لهم عرساً تنفق فيه الوف من الجنيهات بلا طائل . ولما كان وزيراً من وزراء مصر وصاحب مال كثير . ومعروفاً بالسخاء في الاعمال الخيرية فقد استعاض بمظاهر العرس الباطلة التصدق بثلاثمائة جنيه على فقراء الجمعيات الخيرية الاسلامية والمسيحية . ولما سأله بعضهم في ذلك قال له دع الناس يتعودون اشتراك الفقراء معهم في افراحهم لا الاغنياء . فانك مهما اتقنت في عرس لك فقد لا تجد من هؤلاء من يفرح معك بقلبة . أما الفقراء فانهم يشاركونك بعواطفهم جزاء اشتراكك معهم بعاطفة الاحسان اليهم .

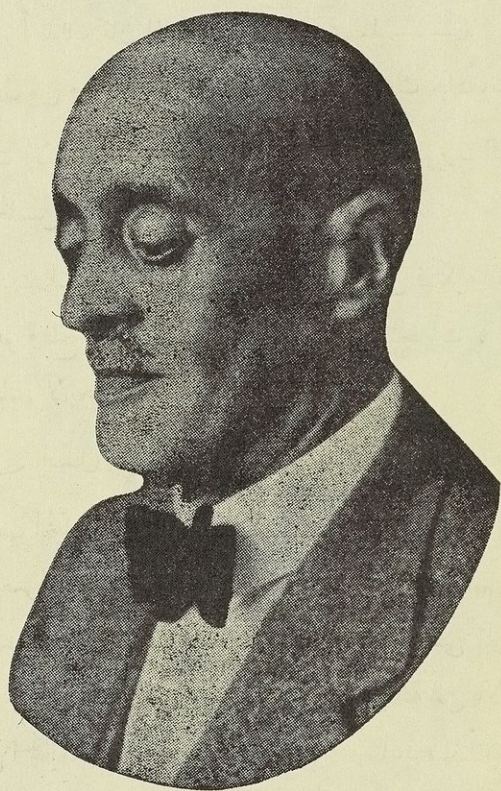
الناحية الطائفية

تأليف أول مجلس ملي : بقلم الاستاذ توفيق حبيب الصحافي العجوز :

هو أول هيئة نيابية أهلية عرفتها مصر ويرجع الفضل في تأليفها وانشائها الى بطرس غالي . كان ذلك في سنة ١٨٧٤ .

ففي مساء يوم ٧ يناير من تلك السنة اجتمع فريق من الشبان الاقباط المستيرين في دار أحدهم بالدرب الابراهيمي لتسليته وتعزيته في وفاة ابن عم له بمناسبة عيد الميلاد المجيد . وتذاكروا في امور طائفهم عامة وأحوال البطريكة خاصة .

فاتفق رأي هؤلاء الشبان على ضرورة تأليف مجلس ملي بتولى النظر في امور الطائفة . وكتبوا الى الحكومة راجين اتمام مقصدهم ، وسري الخبر بين أعيان الطائفة فهاجوا وماجوا وأبلغ سمو الخديوي اسماعيل أن كبار رجال الطائفة غير راضين عن عمل هؤلاء الشبان . فاهم سموه بالموضوع واتدب أحد موظفي الداخلية للتحقيق ، فقام بالمهمة ورفع تقريراً أثبت فيه أن أولئك الشبان لا يريدون الا الاصلاح والخير المخلص لطائفتهم . فوافق سمو الخديوي على طلبهم وعين يوم ١٨ يناير سنة ١٨٧٤ لاجراء الانتخابات . وكان الشبان قد انهزوا الفرصة فوضعوا على عجل لائحة المجلس الملي واجراء انتخاباته .



للاستاذ توفيق حبيب الصحافي المجوز فضل كبير في ابراز هذا الكتاب
كاملا . وقد كلف نفسه مشقة البحث عن كثير من المراجع التاريخية والصور
من اجلنا كما شرفني باعطائي هذا المقال لنشره .

وعقدت جمعية عمومية في الدار البطركية في اليوم المحدد تحت رئاسة الانبا مرقس ، والقى فيها خطبة معلناً موافقته على انشاء مجلس ملي وكتب محضراً بذلك كان المرحوم فرج افندي ملي — كه (جد الصحفي العجوز) أول من وقع عليه وتلاه المرحوم دميان بك جاد باشكاتب المالية وجرت الانتخابات . وتولى المجلس انتخاب البطرك السابق الانبا كيرلس الخامس .

ثم تعقدت الظروف السياسية . وكان أول من فكروا فيه بعد هدوء الاحوال هو وضع قانون جديد للمجلس والانتخابات ، وهو المعروف حتى اليوم باسم لائحة سنة ١٨٨٣ .

وكان الفضل في وضعه وتنسيقه للمرحوم يوسف وهبه باشا .

واتخذ المجلس الثاني . ولكن لم يستمر طويلاً لمعاكسة البطرك وبطائته واصرار الرهبان على الامتناع عن وضع أوقافهم تحت مراقبة المجلس واشرافه . وبقيت أعمال المجلس معطلة وخشى المرحوم بطرس غالي باشا على الفقراء وضياح الحقوق فأنشأ مع جماعة من الاعيان وأعضاء المجلس الملي الجمعية الخيرية القبطية سنة ١٨٨٤ وساعدها اعيان المسلمين بتبرعاتهم وأذنت لها الحكومة باحياء حفلتها السنوية في الاوبرا . وبعد أن تولى سمو الخديوي السابق عباس حلمي باشا أريكة الملك « يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٢ » ألف فريق من الشبان الاقباط جمعية التوفيق القبطية ، ووضعوا نصب عيونهم اعادة المجلس الملي ، ولكن عاد البطرك كيرلس الخامس الى

المعارضة .

معارضة البطريرك ونفيه : فاتفق كل من سمو الخديوي والسير افنان بارنج (اللورد كرومر) وبطرس غالي باشا على نفي البطريرك ومطران الاسكندرية الى ديريهما وتعيين أسقف صنبو نائباً بطريركا ، فانقسمت الطائفة على نفسها اذ أصدر البطريرك حرماناً على أسقف صنبو وكل من يتبعه . ولبت هذا الانقسام شهوراً حتى اتيح لانصار البطريرك السعى لاثادته فارجم ودخل مع مطران الاسكندرية العاصمة بموكب عظيم .

وقبل البطريرك أن تعين لمعاونته لجنة ملية لا يزال حياً من أعضائها صاحب السعادة قلبي فهمي باشا وعبدالله بك أمين واستمرت هذه اللجنة تعمل في دائرة معينة حتى توفي المرحوم بطرس غالي باشا وعين اللورد كيتشنر معتمداً بريطانياً ، فوضع لائحة جديدة معدلة عرفت بلائحة سنة ١٩١٢ . ثم كانت الحرب العالمية . والحركة الوطنية السعدية ، وفي البرلمان تحت رئاسة المرحوم سعد زغلول باشا تقرر الغاء لائحة كيتشنر والعودة للعمل بلائحة سنة ١٨٨٣ . وتألفت وزارة محمد محمود باشا الاولى فوضع قراراً وزارياً باستئناف أوقاف الاديرة من أعمال المجلس . وفترت الهمم ويئس الشعب عامة ورجال المجلس خاصة من الاصلاح .

العهد الجديد : ثم تحركت الاذهان ورأى المستورون من ابناء الطائفة انه لا يصح أن تبقى الحال على هذا المنوال . واتفق الرأي العام على ان السبب في الفتور الحاضر هو أعضاء المجلس الذين احتكروا النيابة ونهضت

الجمعيات القبطية، ويبلغ عددها أربعين جمعية، فدعت الشعب الى الا ككتاب
للا انتخابات وفتحت خزائنها لدفع قيمة التقييد . فبلغ عدد الناخبين
٣٥٠٠ شخص . والجميع يرجون لعهد النشاط الجديد هذا خيراً راجين
أن تفوز بالعضوية عناصر جديدة من الشبان العاملين لتحقيق مقاصد الشعب
توفيق حبيب

وبالرغم من عظم مشاغل بطرس غالي فان نشاطه الغير محدود لم يقصر
على الناحية السياسية فيه . بل شمل أيضاً الناحية الطائفية . وبحق له أن
يسمى مصلح الطائفة الا كبر . لذا فانا نورد بعض ماله علاقة بالطائفة
القبطية ونهضتها حتى يمكننا أن ندخل منه الى الحديث عن مجهوده وأعماله
للطائفة . انه ليس بخافي ان الطائفة القبطية هي أقدم طائفة ليس في مصر
بل في العالم . كما انها اجد طائفة لاقت اضطهاداً لم تره طائفة أخرى ولا
شعب آخر . ولما كان هذا ليس محلاً لذكرها وانما نقول ان نهضتها الحديثة
تبتديء من تولية الطيب الذكر المرحوم الانبا كيرلس وهو أول من أنشأ
مدرسة قبطية في القطر المصري وقد بنى البطرركانة وأنشأ لها مطبعة وغير
ذلك من الاصلاح وقاسى في سبيل ذلك مشقات جسيمة فلما توفاه الله .
خلفه الانبا ديمتريوس في اواخر ولاية المغفور له محمد سعيد باشا ثم تولى
الخدوي اسماعيل باشا كانت الاوقاف القبطية تنقسم الى قسمين أوقاف
الاديرة في الاقاليم وأوقاف الكنائس في القاهرة وكانت أوقاف الاديرة
تحت ادارة رؤسائها واوقاف الكنائس تحت ادارة البطريرك رأساً الا في

المسائل ذات الشأن فانه كان يعقد للنظر فيها مجلساً مؤقتاً مؤلفاً من بعض اعيان الطائفة .

فلما توفي الانبا ديمتريوس استدعت الطائفة الانبا مرقس مطران البحيرة وكان مقره في الاسكندرية ليكون وكيلاً ريثما ينتخب بطريرك جديد . وكانت احوال الاوقاف والمدارس التي أنشأها كيرلس وسائر شؤون الطائفة قد تداعت الى التحول والانحطاط فأحس بذلك اعيان الطائفة وهم نفر قليلون فاجتمعوا في منزل احدهم والفوا جمعية دعوها جمعية اصلاح من المؤكد ان بطرس غالي كان احد مؤسسيها . وتعاهد الجميع على السعي الى ما فيه اصلاح الطائفة وارسلوا بمنشورات الى الانبا مرقس مطران الاسكندرية المذكور وذكروا فيها ما وصات اليه الطائفة من الانحطاط وطلبوا منه الموافقة على انتخاب مجلس مؤلف من ٢٤ عضواً يساعده في ادارة مهام الامور بعد المشاورة واتفقوا على ذلك . وبالفعل صدر امر خديوي بذلك (كما ذكر الاستاذ توفيق حبيب في مقاله السابق) .

وبالفعل تم تنظيم اوقاف الطائفة بفضل بطرس غالي وزملائه وتم تنظيم مدارسها وكنائسها ومطبعتها وتم انتخاب أعضاء المجلس في ١٦ يناير سنة ١٨٧٤ وهو أول مجلس عقد بطريقة منتظمة وسنوا له قانوناً وافق عليه الخديوي اسماعيل باشا وفي أول نوفمبر سنة ١٨٧٤ تولى البطريرك الانبا كيرلس وصدق على المجلس وثبته ثم حصل بينه وبينهم خلاف انتهى بتوسيط الحكومة وتعهد غبطة البطريرك بالاتحاد مع المجلس وتنشيطه

فانشئت المدرسة الاكليريكية لتعليم الرهبان بعد تولية البطريرك بيضه اشهر
مناقبه واخلاقه : قد تبين مما ذكرناه من ترجمة تاريخ حياته انه
 كان عالي الهمة كبير المطامع ذكى الفؤاد قوي الحافظة شديد العارضة .
 وكان قوي البنية ريع القامه ممتليء الجسم . ونظراً لثباته وقوة عزيمته
 لم يكن يصعب عليه عمل . فارتقى من بين العامة الى اسمى المناصب المصرية
 بعد الخديوي بحجده وقوة عقله وثباته فيصح ان يكون مثالا لطلاب العلى .
 وكان واسع الاطلاع فى أهم مناهج الحكومة المصرية فى المالية والقضاء
 والسياسة فضلا عن معرفة اللغات فانه اتقن منها العربية والفرنساوية
 والاينكليزية والايطالية والتركية ويعرف ايضاً القبطية وبعض الالمانية .

وكان مستقل الفكر يكره الداله والوساطه وينظر الى حقائق الاشياء
 دون اعراضها . ومما يروى عن تقديره للاشياء حق قدرها انه لما اخذت
 الحكومة فى انشاء المحاكم الاهليه وكان هو وكيلاً للحقانية احتاجت
 الحكومة الى موظفين لتلك المحاكم فاعلنت ذلك . وتقدم طلاب الخدمة
 بالعرائض والكل منهم وسيط من الكبراء على جاري العادة فى ذلك
 العهد . اذ كان للداله والوساطه شأن عظيم . واستخرج كتاب الحقانية
 اسماء الطالبين فى الكشف دونوا فيه اسم كل طالب وذكروا الى جانبه
 اسم الكبير الذى توسط له واوصى به . ورفعوا ذلك الكشف اليه فقرأه
 فرأى اسم احد الطلاب فى آخر الكشف وليس له وسيط . وكان قد
 تحقق بالفعل انه كفء للعمل . فنقل اسمه الى أعلى الكشف وكتب

بجانب اسمه في محل الوسيط لسائر الطلاب (وسيطة الله) يريد أن لا وسيط له غير الله فقال الوظيفة .

ومما يؤكده من عاشروه وعرفوه انه كان واسع الاطلاع في احكام الشريعة الاسلامية وقد شهد له ائمتها بالتبحر فيها . وكان رسول سلام بين الخنديوي واللورد كرومر ايام تمسك كل منهما بحقوقه . فرجل حوى هذه الصفات ومن الله عليه بهذه الهبات وخدم مصر كما رأينا اجل الخدمات لجدير بقول السير جراي .

« اننى لا اود ان اسمع كلمة سوء عن بطرس باشا فان خدمات الرجل اعظم من ان تؤثر عليها - فاسف المتطرفين وذوي المآرب والاهواء »

ويكفي ان نقرأ ونعمن للرسالة التى كتبها الاستاذ ابراهيم محمد الوردانى وهو اقرب الاحياء لابراهيم ناصف الوردانى قاتل بطرس غالى قال الاستاذ ابراهيم محمود الوردانى « كان بطرس غالى من الشخصيات العظيمة التى برزت في تاريخ مصر الحديث واعترف له الجميع بالنبوغ والذكاء والاخلاص . فانه جمع الى العلم والعمل وخصاله تظهر في ثبات جنانه وسعة صدره ومحبه لوطنه التى قد لا أجدمن يوازيه من رجال مصر فيها واننى اذا حاولت أن اكتب عن بطرس غالى وأعماله الهائلة اثار كيف اوفق بينها وبين تلك الحادثة الشنيعة وهذه المأساة الفاجعة التى ختمت بها حياته وأصاب مصر في الصميم بفقد أعز ابنائها . هذا الرجل قد اضطهده الزمان وظلمه . فقدمه الى امة لا تستحقه وجاء به في وقت

كان يجب أن تتضام مصر وتسير وراءه .. تقدم إليها مخلصاً ممتلئاً عزيمته وإيماناً فما وجد إلا متاعب وعثرات وما رأى إلا نعصب مقيت استولى على أفتقه البعض نتيجة غيره مزجوها باسم الدين .

ان بطرس غالي لم يخـدم طائفته بقدر ما خدم مصر . بينما كانت طائفته في أشد الحاجة إليه اذ كانت في حالة عصبية تلهف لشخص مثله ينقذها . ولكن الرجل ابى الا ان يخدم مصر بما فيها من اقباط ومسلمين بل قد أدى للمسلمين من الخدمات ما لم يؤدها مسلم للمسلمين حتى قال عنه الشيخ النواوي شيخ الجامع الازهر وقتها أمام الحديوي « ان هذا الرجل خدم الاسلام والمسلمين اكثر من المسلمين أنفسهم » ولم يكن يدفعه في ذلك الا نصرة وطنه وتقديره خدماته للجميع كي لا يتهمون به بالنعصب فينفرون منه . ولكنه وجد اعراضاً بل رأى قتله أتمه تقدموا واغتالوا حياته الغالية .. لفظه هذا الوطن على يد أحد الشباب المشهور المأفون بأن قتله فرسم التاريخ على هذا الشعب المسكين رمز الانحطاط والاثم . وخط عليه الدهر وصمة العار التي لا تمحى .. واذا كان بطرس خدم طائفته يوماً خدمة خاصة فما ذلك الا لانه كان يؤمن بان مجد وطنه من مجد ابنائه الحقيقيين وعظمته لن تبرز الا بعودة القومية اليه وتلك تعيش في هذا الدم المصري الاصيل .. دم الاقباط لا غيرهم .

قد تمر الاجيال وقد يسجل التاريخ الحوادث البارزة في صفحاته عن مصر . وقد نهض مصر يوماً ما وتصلح ولكننا ابدأ سنذكر دائماً ولن

ننسى ابدأً انا كننا على أبواب مجد واصلاح وعهد جديد ففقدنا الرجل
أو افقدناه .

ثم تبع الاستاذ ابراهيم محمود الورداني ما كتبه السطور التالية تنقلها
رغم ما فيها من صراحة :-

« وقد قامت ثورة بعض المسلمين في ذلك الوقت اذ رأوا في اختيار
قبطي لرأسه الوزراء جريمة لا تغتفر . وقد كان سير رونالد ستورس يقول
لبعضهم لقد اتيحت الفرصة لكم لكي تثبتوا للعالم ان ما قيل عن تعصب
المسلمين غير صحيح .

ولكن للأسف كانت احاديث ستورس لا تلاقي ما يستحق من
الاعجاب حتى ان الاميرة نازلي عندما قيل لها ان الخديوي اختار قبطياً
لرأسه الوزراء اغمى عليها . . وقد ابتدأت الفتن محوم حول بطرس باشا
ولكنه استمر في أعماله واصلاحاته لا يكثرث ولكن شاء الحظ السيء
أن يتهمة البعض بأنه آله من آلات الحكم الانجليزي لانه مسيحي .

ومما يدل على شجاعة بطرس غالي باشا انه كانت تصله يومياً خطابات
التهديد فيضغط عليها باصابعه ثم يضعها في جيبه . وكان يسلمها لسير غورست
ويقول له :

الحمد لله .. هذا الخطاب لا يحتاج الى رد . ان هذه الخطابات لاتهزني
ولا تحركني .. لانني اعرف ان ليس عندهم الجرأة الكافية للاقدام على
قتلي . ولكن القاتل اوتى هذه الجرأة مدفوعاً .

ياروح الفقيد العظيم .. يامن تعيش في قلبي وتسكن في اعماقي .. اننى حائر
 ماذا اتكلم .. لقد غلب على الدمع فانهقد لسانى ووقف قلبي . من قلب
 عامر بالاخلاص تطويه الآلام اتقدم اليك بنخشوع طالباً منك الغفران .
 وان كانوا قد اجرموا اليك والى أهلك وعشيرتك فاننى وانا ذلك الشاب
 الذي نشأ منهم .. ها أنا أعود اليك ساكباً دموعي اعدك أمام ربى والهي
 بأننى سأظل مشيداً بذكرك فخوراً بك . لا لان شقيقى امى هو الذي
 اغتالك ولا لانك كنت قبطني وأنا أحب الاقباط . بل لانك كنت أعظم
 مصري انتجته مصر الحديثة

ابراهيم الورداني

خاتمة حياته : يوم ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ هو يوم من اشأم أيام
 مصر . اذ كان بطرس غ——الى باشا في وزارة الحقانية يزورها ويفتشها
 بصحبة وكيل الحقانية والنائب العام ثروت باشا . وفي الساعة الواحدة
 تقريباً من ظهر ذلك اليوم نزل بطرس باشا وفي معيته ثروت باشا وعندما
 وصلا الى الحديقة سلم عليه وحياء وانفرد بنفسه متجها الى عربته وبما
 كان يهم بركوبها اذ سمع ثروت باشا صوت انطلاق خمس رصاصات متتابعة
 من مسدس من نوع البروننج كان يحمله شخص محتبئ في الحديقة وسارع
 هو ومعه وكيل الحقانية احمد فتحي زغلول باشا للحاق ببطرس باشا وتبعهما
 جميع موظفي الوزارة ليجداه مصابا بثلاثة رصاصات في رقبته والرابعة في
 كتفه وأما الخامسة فأصابت جانبه الايمن . وسارع عبد الحالى ثروت

باشا الى الجانى ومعه ساعي أسمر اللون من خدم الوزارة فالتقى الجانى على الارض وأوثق الساعي يديه بمحمل وكان فتحي زغلول يفحص بطرس الملقى على الارض تتدفق الدماء من جراحه ثم قرروا جميعاً نقله فحمّله فتحي زغلول وعبد الخالق ثروت وساعدهما بعض الموظفين الى غرفة بوزارة الحقانية واستدعى الدكتور نولون لاسعافه فى الحال فحضر من وزارة الداخلية على عجل وتبعه ميلتون وغيرهما من الاطباء وبعد أن اجريت الاسعافات الاولى للجريح نقل الى مستشفى ميلتون القريب من محل الحادثة .

ولما بلغ الخبر الى سمو الجنب العالى تلفوئياً بسراي القبة كان وقعه عليه شديداً فأسرع بالحجيء الى سراي عابدين ومنها الى المستشفى . ولما رأى وزيره الاكبر فى هذه الحالة السيئة قبله وشجعه ولم يمالك من البكاء . فقابل عطوفة بطرس باشا هذه العواطف الشريفة بالشكر مردداً كلمة (مرسي) بصوت منخفض .

انتشر خبر هذا المصاب العظيم فى طول البلاد وعرضها ونقل تلفوئياً الى اوربا فوقعت حادثة اصابته وقعاً مرأً فى كل نفس تتألم وعلى كل وطنى يدري عواقب الامور فهلعت القلوب وتكدرت الخواطر . وازعجت الافكار وقامت القاهرة وجهات القطر تستفسر تلفوئياً وتلغرافياً عن حقيقة الحادث . فاحتظ شارع الدواوين وما حول مستشفى ملتون بالقوم وكلهم فى حالة هياج وغضب حتى واقتهم الاخبار من الاطباء تطميناً

للخواطر المضطربة فنشروا من وقت الى آخر نشرة بحالته . وقد صدرت
النشرة الاولى عند الساعة الرابعة مساء وهذا نصها :

عطوفة بطرس باشا غالي أصيب بعدة رصاصات أغلبها غير مهمة ولكن
واحدة منها مرت بالتجويف الباطني ومخطره . لغاية الآن الحالة الطبية
ولكن يجوز عمل عملية جراحية لعطوفته .

الدكتور ملتون الدكتور خياط
وقد زار عطوفته بالمستشفى كثير من كبار الامة وحكامها والامراء
وفي طليعتهم صاحب الدولة البرنس محمد على والبرنس حسين باشا كامل
الذي آلمه كثيراً هذا المصاب الخطير . والسير الدون غورست الذي لازم
عطوفة الوزير عند فراشه مدة طويلة .

لم ير الدكتور ملتون في بادئ الامر ضرورة التعجيل بالعملية
حتى يقوي الجريح قليلا فيتحملها ولكن عند الساعة السادسة والنصف
تقياً الجريح دما وكان ذلك داعياً لاجراء العملية وفعلاً عملت واستخرجت
الرصاصات التي مرت بالتجويف الباطني .

وعند الساعة الثامنة والنصف مساء بينما كان الناس في انتظار نهو العملية
واخراج الرصاصات الخامسة من جانب عطوفته ظهرت النشرة الثانية —
وهذا نصها .

قد عملت عملياً جراحية لعطوفة بطرس باشا غالي واستخرجت
الرصاصات التي مرت في الكبد والامعاء . وتحمل عطوفته العملية جيداً .

ملتون خياط

ولما انتشر خبر نجاح العملية ووجود الامل بتحسين الحالة وسلامة الوزير العظيم صرخ القوم من أعماق قلوبهم بالتضرع الى الله طالبين منه تعالى التعجيل بتمام شفاء هذا الوطنى الكبير الذي لم ترى مصر فى حياتها أقدر منه كفاءة وأمانة وإخلاصاً وأقيمت الصلوات فى الكنائس والجوامع توسلاً للعزة الإلهية بأن يحفظ للإامة رجالها الوحيد وعضدها الأكبر ويحقق الامل بشفائه .

٢١ فبراير سنة ١٩١٠ . بات القوم فى قلق ولم يطمئن جانبهم الى مضجع حتى الفجر فاسرعوا الى المستشفى وكلهم آمال بتحسين حالة وزيرهم قرئت النشرة وعلم منها انه كان طيباً وفى حالة جيدة حتى الساعة العاشرة مساءً ثم تغيرت حاله وامضى ليلته فى تهييج حتى الرابعة صباحاً فظل فى سكون وهدوء الى أن أخذت قواه تضعف فألم هذا الخبر القلوب التى شاركت المريض فى أوجاعه وآلامه . ومع ذلك كان الامل لازال موجوداً بشفائه وهذا ما كان يرطب الخواطر المضطربة قليلاً .

ولبت القوم منتشرين حول المستشفى قلقين حتى شوهـد الحديوي ينزل من عربته وحوله الوزراء وجمع من الاتباع والحاشية والسير غورست وكثير من الامراء والاعيان وكلهم يرجون له الشفاء . وهناك فى حجرته التى يرقـد فيها كان يجلس الحديوي فى رهبة وسكون من أجل ذلك العظيم الراقد الذى لم ينل نظيراً له مثل هذا التنازل الكبير . كان يجلس فى رهبة واحترام لذلك الراقد الذى كان تتنازع روحه الموت والحياة . وأخيراً

لما أحس بطرس ان دقائقه أصبحت معدودة تيقظ قليلا والتفت الى الخديوى الذي قال له : الست بخير يعطوفة الباشا.

- اني بخير يامولاي . وما يؤلمنى جرحي كما يؤلمنى حزنك على .

وسكت قليلا كأنما كان يستجمع أفكاره ولكن حشرة الموت قطعت سكوته وعندها نظر للخديوي ثانية فمد يده وتناول يد بطرس الذي قال له : « يعلم الله انى ما أردت غير الخير لبلادي »

ثم انتفض وتلوى وأخيراً استكن سكون الموت فلما أحس الخديوي الذي ذهل من هول المصاب ببرودة اليد التي يمسك بها انقلبت منه صرخة من أعماق قلبه وأجهش بالبكاء فولول الرنس حسين كامل باشا (السلطان حسين كامل) وبكى الجميع حتى علم جميع من بالدار المصاب العظيم من سماعهم لبكاء الامراء والوزراء والجناب العالي .

الاحتفال بتشييع الجنازة : ما لاح صباح يوم ٢٢ فبراير سنة ١٩١٠

حتى أخذت تتوافد الى الشوارع التي تقرر أن تسير فيها الجنازة حتى اكتظت بالالوف من أهالي العاصمة والاقاليم الذين وفدوا للاشتراك في هذا المصاب الوطني العظيم . وفي منتصف الساعة الحادية عشر بدأ الموكب بالتحرك يتقدمه فصيلة من فرسان البوليس ثم رجال المدفعية الانكليزية ثم أورطة من المشاة الانكليزية تتقدمها موسيقاها مجللة بالسواد وكانت المدافع تطلق من القلعة أثناء ذلك وانضمت عند الاوبرا جميع الاورط البيادة للجيش المصري تتقدمها موسيقاها وهي تعزف بنغمات الحزن والجنود

منكسة السلاح ثم تلاميذ المدرسة الحربية ورجال المدفعية المصرية بموسيقاها
ثم كبار ضباط الجيش المصري والبريطاني ورجال الدين لا يقل عددهم عن
مائة ومندوبو الطوائف الروحية الاجنبية ثم قناصل الدول جميعهم فخمسة
أبسطة رحمة يحملها عشرة وزراء وعشرة من الوكلاء فالنعش على عربة
مدفع مجللة بالعلم المصري ثم عشرة ضباط يحملون عشرة صناديق نياشين
تحوي خمسة واربعين نيشاناً من الدرجة الاولى والامتياز وبعض نياشين
الدرجة الثانية . وتبع ذلك أولاد الفقيد وأخيه فدولة محمد على باشا بالنيابة
عن الحديوي والامير حسين كامل باشا وجميع رجال المعية وكبار موظفي
الحكومة وجميع نواب الجمعية التشريعية ومجلس شوري القوانين ورجال
النيابة والمحاكم المختلطة ثم رجال الجمعيات القبطية وأهمها التوفيق والرابطة
المسيحية والايمان والحبة وثمره التوفيق والمعارف والشبان المسيحية وكل
منها يحمل علماً مجللاً بالسواد معه طاقة ورد كبيرة ثم جمع من السياح
ثم تلامذة المدارس بالقاهرة عالية وثانوية وابتدائية . وقد كان لاشترك
الامة والحكومة هذا الاشتراك الرائع دليلاً قوياً على ما تحمله النفوس لبطرس
ووصل هـذا الموكب بعد سيره في شوارع مناره بالمصاييح ومجللة
بالسواد ومغطاه جدرانها وأعمدها بالقماش الاسود حتى الكنيسة المرقسية
ولكن لم يسمح بدخول الكنيسة سوى للامراء والوزراء وقناصل الدول
ثم سار الموكب حيث دفر الفقيد العظيم في قبر اسرته في كنيسة السماء
باسمه الآن في شارع الملكة نازلي .

ملاحظات على هامش الجناية : مما يحز في نفسي كمصري . وكصري
مخلص لوطنه أن رى كثيراً من الكتاب المتحيزين الغير منصفين . واذكر
ان كثيرين اضرخوا عن ذكر اسمه في كتب تاريخيه مهممة والقليبين
ذكروه متها ذو تاريخ مشوه . ولكن مما يثلج الصدر حقاً أن آجد
بعض الابناء والاخوه يهبون للدفاع عن الرؤساء ولا انصاف الزعماء وكان
منهم الاستاذ ابرهيم محمود الورداني فما درى بكتابي هذا حتى أرسل الى
كتابا كبيرا مطولا اقتص منه القليل رغم ان كل ما فيه ذو قيمة كبيرة .
قال الاستاذ عن الجريمة « ان الجريمة التي جناها الورداني ليست جناية
اغتيال عادية لفرد عادي . بل انها كانت جناية مست في الصميم امة كاملة
كان لها أمل ورجاء فوأتهم تلك الرصاصات الطائشة . انها كانت بدعة
ابتدعها فارتج لها القطر وكان الوطن حتى حدودها طاهراً منها فنبه الافكار
الى فكرة الاغتيال السياسي حتى اتنا نلاحظ حدوث حوادث كثيرة مثيلة
بتلك الحادثة الشنيعة لم تكن تحدث قبل قتل بطرس غالي باشا »

ثم حكى في كتابه كيف كان الورداني طالباً فاشلاً يتنقل بين المدارس
عليه يوفق فتعلب غباوته حتى اضطر عمه الى ارساله لاوروبا عليه ينصلح
بوجوده في وسط جيد فاختار أحط الطبقات يعاشرها . مختاراً دراسة
الصيدلية ستاراً له . فزادت غيرة الجهل ظلام الوحشية اذ انتقلت اليه
عدوى المباديء الفوضوية وكان هذا دوره الاول في الحياة أما دوره الثاني
فيبتديه بعودته بلا شهادة الى مصر فاعتمد على الكذب في دفع المعره

عن نفسه وادعى انه حصل على دبلوم فطلبه منه عمه فأخذ يراوغ حتى تمت الجناية وكان عمه قد انصرف عنه غاضباً متوعداً حارماً اياه من المال الذي يفتح به اجزاخانة. وأخيراً استرضاه قليلاً بوساطة الاصدقاء. ولكن تجارته كسدت ففارقه عماله لبوار عمله وتراكت ديونه فزاد بؤسه وكان قد مد يده الى مال أمانة لديه لا حدى الجمعيات وطالبوه به فسقط في هاوية اليأس حتى فكر فى أن يختتم حياته « بعمل مجيد » كما قال هو . وزاد به غروره حتى كان يعتقد استطاعته أن يحل أعقد المشكلات السياسية والتف به جماعة الحزب الوطنى فأغروه بيطرس وبالفنك به ليكون فى قتله هذا « العمل الجليل » الذي يبيغيه بعد أن زينوا له البطولة .

غير اننى أذكر بعض ما كتبه فى سطور قليلة مبتعداً عن التطويل عن المحاكمة وكيف تمت : سجل المتهم على نفسه باقراره فى التحقيق أن القتل كان مع سبق الاصرار .

حاول محاميه أن يخلصه بعدة طرق فادعى أولاً انه مخبول وان خباله وراثى وهذا الامر مكذوب فعمه طيفل باشا وكل عائلته فى أتم حالة من الصحة .

ثم ادعى محاميه انه غير مسئول عن الجناية فالرصاصات الخمسة لم تكن قاتلة فرد عليه الاطباء بأن كل منها كانت تكفى للقتل وقالوا عنه انه كان تحت تأثير غريب عنه واثبتوا ذلك بعلم النفس وذكروا انه ليلة الجريمة قابل فى الطريق عضوين من الحزب الوطنى استصحباه للدكتور حافظ عفيفي

عضو الحزب. وانه في الواقع ليس هو المجرم. بل المجرم من دفعه للاجرام
وقال عبد الخالق ثروت باشا النائب العمومي وقتها في معرض الاتهام
« انه ائكل مصر رجلا من خير أبنائها . جمع بين العلم والتجربة . فقبرت
معه هذه الصفات العالية »

ومما يذكر ان الهلباوي تقدم للدفاع عنه فصرخ الورداني وقال
لا أقبل أن يدافع عني بطل دنشواي . ولكنه أخيراً قبل حتى الهلباوي
لم يحسر أن يتهم بطرس غالي باي اتهام بل قال عنه بالنص (كان منزله
كعبه لشيوخ المسلمين كما كان للاقباط) .

بعض أقوال الصحف : (البورص اجبسيان) الجميع يعترفون ان
بطرس قتل لانه مسيحي . انه سار في طريق الحرية وكان القتل يترقبه
من بداية الطريق . (البردجيه) التعصب موجود بشكل فظيع . الحزب
الوطني يعد بطرس أعداء المسلمين . مسئولية الجريمة تقع على انجلترا
لانهما أعطته الحرية لامة لم تنضج . كان يجبكم الصحف المتطرفة في مصر .





صورة المؤلف سنة ١٩٣٩

صه المؤلف الى القارى

جری عرف المؤلفین کلهم أو جلهم أن یـ کلوا بوضع مقدمات کتبهم لاصدقائهم من الکبار المؤلفین وعند هـایة طبع الـ کتاب یدور المؤلف یجمع التفاریظ الـ کتابه لیسجلها فیه . ولکنی انور الیوم علی هذا الوضع . فلما أطلب تفاریظ من اصدقائي کبار



الـ کتاب . لماذا أنقل علی صديق فاکفه أن یقرظ وأن یمدح ؟ . لما لا أكون شجاعاً فأعرض علی قرائي الـ کتاب بـ کل صراحة وبـ کل جرأة وأنتظر حکمهم . اننی انتظر ان المسألة بینی وینهم هی مسألة (عائلية) أو (شبه عائلية) فیهـا کل مافی الجو العائلي من تسامح واعفاء وصفح وغفران ..

ان التألیف التاریخی عمل جبار لا یمکن به . وفرق عظیم بینہ وین التهویش بالمقالات النصار أو القصص

زعیم الادب الرفیع الاستاذ الکبیر
« سلامه موسی »

النجاح فی القصة مضمون أما هنا فمیسر نبت الفكرة فکتبت وکتبت . ومضت أيام ولیالی . سهرت الیالی ووصلت بها الایام حتی انمت الـ کتاب وكان

ان تشجعت وطبعت . ولكن كان قبل الطبع عقبات وعقبات . قد تكون سر المهنة وقد تكون من أهم الاسرار . ولكن كانت أهم النقاط التي افكر فيها كم ألف أطبع وكم اوزع وبكم أبيع . وأخيراً (استشرت جيبي) فطبعت الفأ . وتركت التوزيع للمطابع والمكاتب والاصدقاء . واما الثمن فجعلته معتدلاً اذ اني دفعت كثيراً ونظرة إلى نوع الورق والجلده ونظامه الطبع تكفى للتقدير . وجازفت بالالف اعتماداً على مجرد الحظ . ارايت كيف يغامر المؤلفون في مصر معتمدين على القضاء والقدر . وعلى المزاج الحكومي الذي اذا شاء (صهين) واذا شاء غدر . اني افضل ان تمر المسودة على الجهة المختصة قبل الطبع . حتى لا يصاب المؤلف في ذهنه وفي ماله واتاجه .

اما الزملاء والاصدقاء فبارك الله فيهم جميعاً . لقد اكرموا كتابي الاكرام كله . ولقد راعني اني جوملت اكثر مما استحق . شرفني الاستاذ الكبير سلامه موسى باهدائي صورته مع المقدمة . وشرفني الاستاذ توفيق حبيب الصحافي العجوز بكثير من المراجع واسمعني الكثير من شيق احاديثه وكلف نفسه مشقة البحث عن كثير من الصور واهداني صورته في آخر زيارته لي . وغمرني الاستاذ ملك بك حنا عبيد ناظر المدارس المرقسية بكرمه فأشار الى مراجع الجرنال يعقوب ووعدني بقراءته وتصحيحه . اما الاستاذ ابراهيم محمود الورداني فقد ادهشني عشرون صفحة من الحجم الكبير ارسلها الي كلها معلومات فذه وطلية اعتذر عن

نشرها ولمن ينبغي قرائتها اضعها تحت تصرفه او ربما اطبعها في ملزمه خاصة
لاهميتها .

اما اصدقائي الذين طلبوا عشرات النسخ ليوزعوها . فسأقيم لهم حفلة
تكريم انشاء الله (عندما اقبض الثمن)

انى انحنى امام النقد اجلالا واحتراما واشعر فى اعماق نفسى اننى
مدين للناقدين اكثر من المقرطين . ولكنى ها انا انقد نفسى بنفسى قبل
ان ينقدنى غيرى . اتى لم يبلغ ^{بى} الغرور لاقول انى جدير باخراج
كتاب ضخمة مثل هذا يحوى فكرة ضخمة مثل هذه . ولكنى حاولت
فعلنى نجحت بعض النجاح . لأن هذا فن فى السماء وانا لا ازال فى الارض
لقد حاولت ان اجرب وان اطرق الباب فقط . وقنعت بقسطى المتواضع
من النجاح . فلينظر القارىء والناقد خطوتى الثانية . . والنقد الثانى اوجهه
لنفسى ان لغتى تحتاج لكثير من « التوش » . استغفر الله . بل تحتاج
« للترميم » . ولكنى ادافع عن نفسى باننى اقدم كتابى للشعب . لانى
كتبته للشعب ومن اجل الشعب . فلا يهمنى ان يغضب الجمع الغوى
ويغضب معه سيبويه والزحشرى والقلقشندي

والنقد الثالث . قد يقول قارىء انى جريء هذه المواضيع
بكثير من الجرأة ولكن لم تكن هذه المواضيع مكتوبة من قبل . اقرأوا
كتب الرافعى والمسألة المصرية . والسيد عمر مكرم لفريد ابو حديد .
وسعد زغلول للعقاد وتاريخ الامه القبطية لمدام بوتشر . وكثير من

المراجع التي سجلتها في الهوامش فتجدون فيها اسلوبا اجريء وتحديا صريحا .

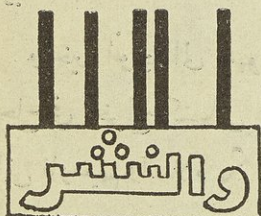
واخيرا اتوجه الى جمهور القراء بالشكر فهم ثروتي وهم الذين اعطوني النجاح في اخراج كتابي . فلعلني ارضيهم . ولعلني اوفق في كتابي الثاني فارضيهم والسلام

خيري حبشي
 محمد عبد الحليم
 ١٢

تم طبع الكتاب

قدمت هذا الكتاب

(وتقدم)



لبنان

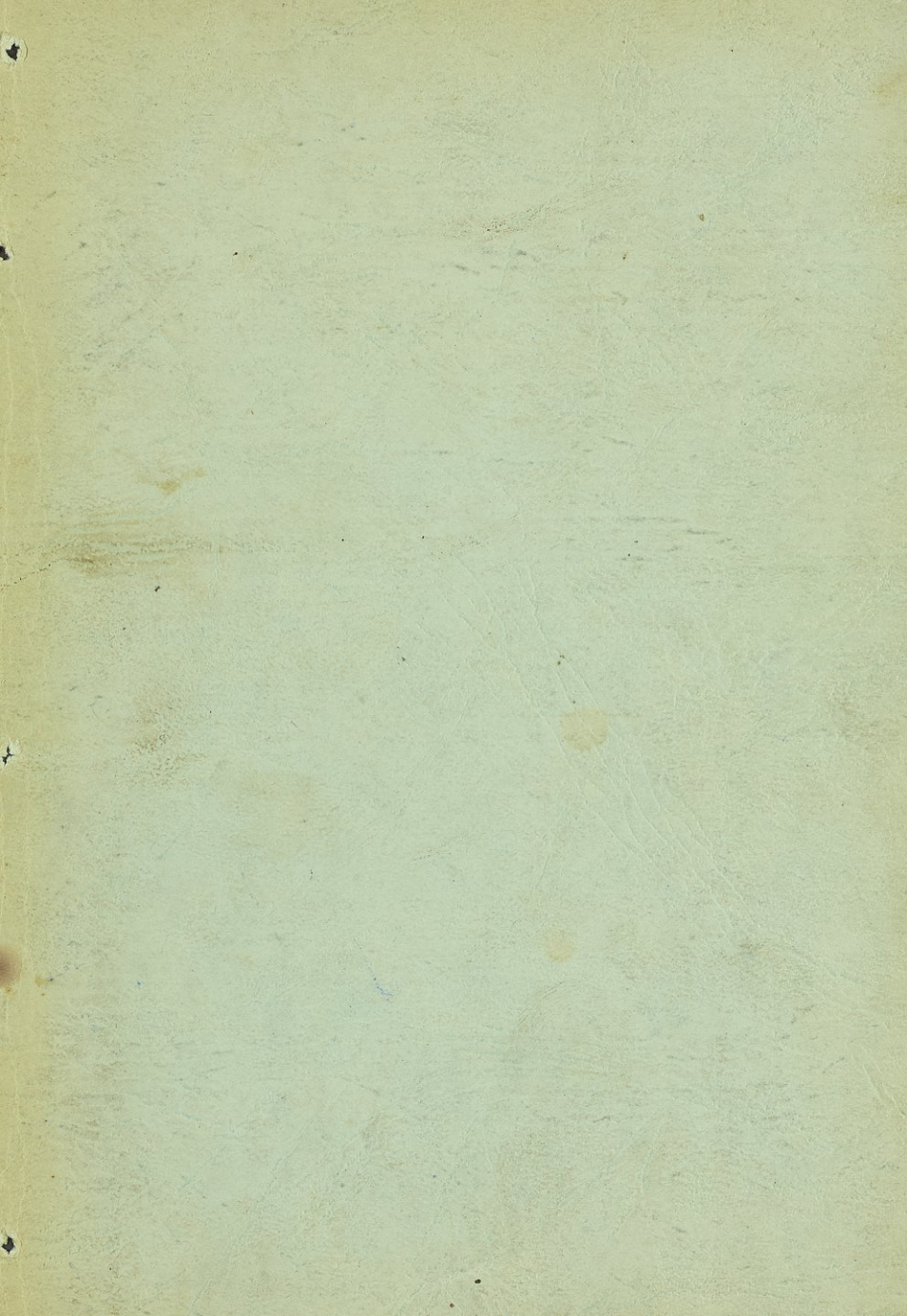
داود

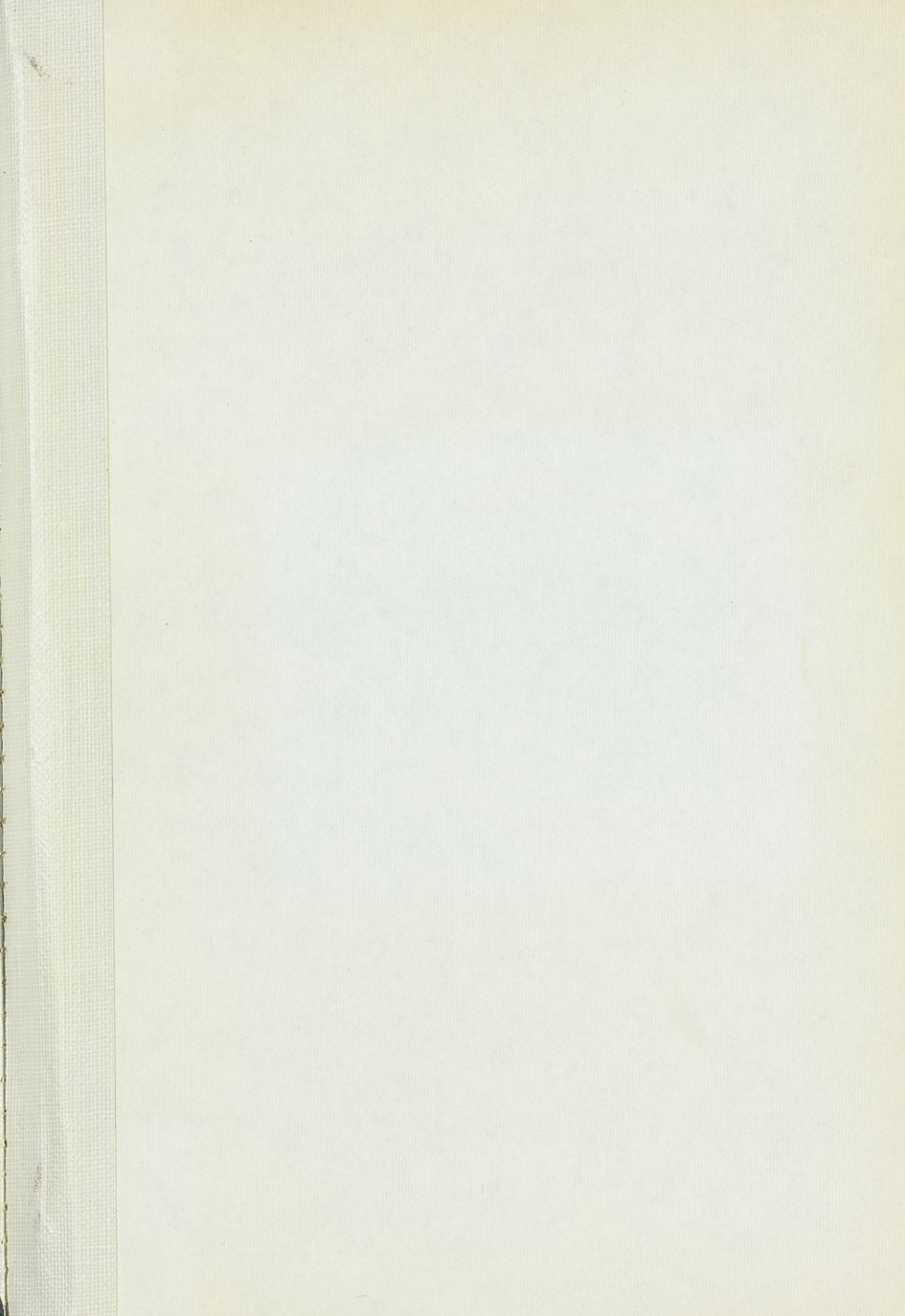
تأليف

خيتري

(كتاب الحياة والقوة والطهارة)

يشترك في تحريره كبار الكتاب والمؤلفين







PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

THE ABU SHADI
MEMORIAL LIBRARY

PRESENTED BY

CHARLES A. DANA, JR. '37
H. H. PRINCE SADRUDDIN AGA KHAN
COUNCIL ON ISLAMIC AFFAIRS



Princeton University Library



32101 072535535